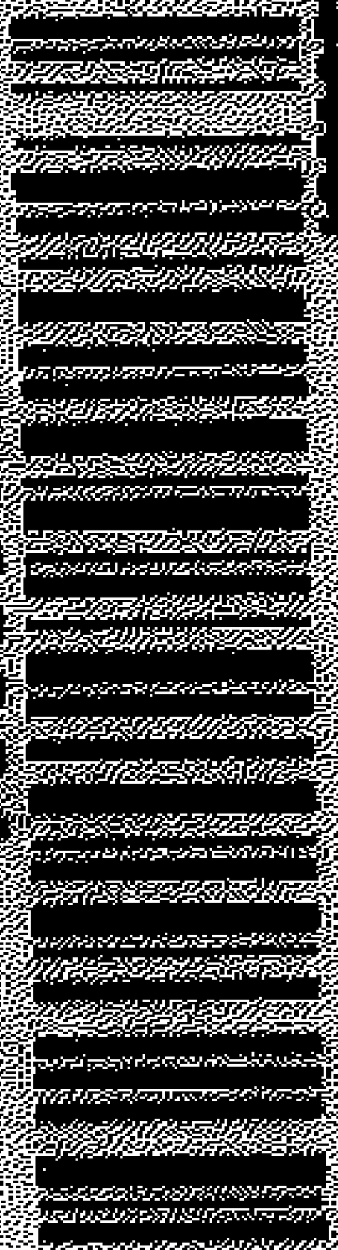
اقرأ

محمد كامل حته

القيم الدينية والمجتمع

عدد ممتاز

اقرأ

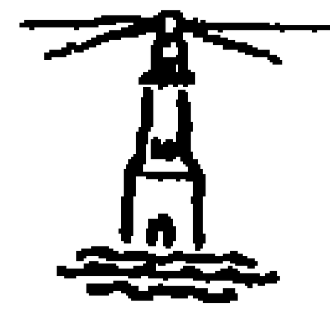
تصدر أول كل شهر

[٣٨٦] - يوليو ١٩٨٣

رئيس التحرير أنيس منصور

محمد كامل حته

القيم الدينية والمجتمع



دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١

للدين أثره فى حياة الفرد والمجتمع ، فهو يضع من المبادئ والقيم ما ينظم علاقة الإنسان بربه ، وعلاقة الإنسان بالمجتمع الذى يعيش فيه .

والقيم الدينية ليست مبادئ نظرية ، ولكنها سلوك وعمل وواقع حياة ، وهى تتجه إلى تكوين الفرد الصالح ، فإذا تم ذلك تحقق قيام المجتمع القوى السليم ، الذى يتعاون أفراده على البر والتقوى ، وتستقر فيه دعائم الكفاية والعدل والسلام .

والإنسان فى حاجة إلى أن يتعرف هذه القيم على صورتها الحقيقية ، حتى يستطيع أن يأخذ بالاتجاه القويم فى الحياة ، ويتزود من هذه القيم بالطاقات التى تمكنه من أداء رسالته فى المجتمع .

ذلك لأن القيم الدينية فى حقيقتها شىء ، وهى فى حياة كثير من المنتسبين للدين شىء آخر . فقد أساء بعضهم فهم القيم الدينية ، فى الفكر أو فى التطبيق ، كما أساء

بعضهم الآخر الحكم على هذه القيم ، لأنهم بنوا حكمهم على هذا التطبيق الخاطئ ولم ينظروا إلى الدين فى حقيقته وفى تطبيقه السليم . . .

ومن هنا كانت نقطة الضعف فى أكثر ما يكتب – مثلا – دفاعًا عن الإسلام ، أنه يأخذ الجانب السلبى فى الدفاع ، أو يدافع عن الإسلام بطريقة النفى لا الإيجاب . . .

إنك تقرأ كثيرًا مما يكتبه الذين يتحمسون عن صدق وإخلاص دفاعًا عن الإسلام فى مواجهة الموجات الفكرية والحضارية الغلابة فى هذا العصر ، فتجد المنطلق الذى يصدرون عنه فى دفاعهم أساسه نفى ما يلصق بالإسلام عن جهل أو هوى ، ولذلك يدور دفاعهم حول أمثال هذه المعانى :

- الإسلام لا يتعارض مع حرية الفكر.
- الإسلام لا يقف فى طريق التطور.
- الإسلام لا تناقض بينه وبين العلم.
- الإسلام لم ينتشر بالسيف.

وهذا الأسلوب فى الدفاع عن الإسلام مرجعه إلى عدة عوامل ، منها ما ترسب فى وجداننا من أثر الشعور بتخلف العالم الإسلامى وتفوق الشعوب الغالبة ، ومنها الخلط فى التصور بين الإسلام وواقع المسلمين ، ومنها ما ألصقه به الأعداء من مدسوس الأفكار ، وما حرصوا على تجريده من مدلوله ومعناه.

ولهذا كان هذا الأسلوب فى الدفاع عن الإسلام محاولة لإثبات الذات بطريقة عاجزة أو خاطئة.

طريقة عاجزة عن إدراك الحقيقة التى قام عليها الإسلام عقيدة وشريعة ، وتطبيقًا فى مختلف البيئات الإنسانية ، وعلى امتداد عصور طويلة . . .

وطريقة خاطئة فى عرض هذه الحقيقة على الناس ، فكرًا قويًّا واعيًا ، لا يستجدى الاقتناع ولا يتسوله بأسلوب الدفاع ، بل يفرض نفسه بمنطقه الذاتى على العقول والأفكار . وسلوكًا للفرد والجماعة يكون حجة ناطقة لا تحتاج إلى منطق الدفاع ، ولكنها حجة للإسلام ظاهرة لا تحتاج إلى إقناع .

إن قرونًا طويلة قد أضافت إلى الإسلام ما ليس منه ، حتّى اختلطت صورته فى حياة أهله وفى أعين غيرهم من الناس .

ذلك إلى واقع المسلمين فى كثير من العصور وكثير من الأقطار ، مما يتخذه الأعداء والجاهلون حجة على الإسلام وليس ظاهرة عرضية فى حياة المسلمين .

لهذا كان الأسلوب العلمى فى عرض القيم الدينية فكرًا وتطبيقًا ، هو الأسلوب الذى يعرض الإسلام مجردًا من كل زيف ، ويربط بينه وبين حياة أهله بمقدار التطابق بين العقيدة والسلوك . . .

وفى هذا الكتاب نقدم صورًا من القيم الدينية وأثرها فى حياة الفرد والمجتمع ؛ مستمدة من مصادرها الأصيلة فى الكتاب والسنة ، ومن خلال التطبيق العملى والواقع الحى لهذه القيم الخالدة ، وفى ضوء ماكشف عنه العلم من حقائق تعمق الإيمان بالله ، وتؤكد هذه القيم فى النفوس .

نقدمها للمجتمع العربى والإسلامى وهو يخوض معركة الحياة ويواجه مشكلات العصر ؛ ليستكمل بها مقوماته الذاتية ، ويتسلح بالعقيدة القوية والفكر المؤمن والسلوك القويم ، وليأخذ دوره ويحمل مسئولياته فى هذه الفترة المليئة بصراع المبادئ وتحديات القوى ، وليكون هذا المجتمع العربى والإسلامى الذى يضم مئات الملايين فى مختلف أرجاء الأرض ، والذى تجمعه عقيدة واحدة حول قبلة واحدة ، هو بحق المجتمع الذى وصفه الله – تبارك وتعالى – بقوله :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤمِنُونَ بِاللهِ)[1] .

ولماذا كانت القيم الدينية هي وحدها الكفيلة بسعادة الإنسان وإرساء دعائم المجتمع الذى تتوافر فيه الكفاية والعدل والسلام ؟

ذلك لأنها وحى من عند الله الذى خلق الإنسان وأكرمه بالخلافة على هذه الأرض . فهو – جل جلاله – أعلم بما يصلح عليه أمر الإنسان وحياة المجتمع :

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ؟)[2] .

ومن هنا كانت كل محاولات الفكر الإنسانى – خارج نطاق التشريع الإلهى – قاصرة عن تقديم المنهج المتكامل لحياة الإنسان والمجتمع حياة سعيدة فاضلة . ومن هنا أيضًا نجد أكثر الشعوب المتحضرة بهذا المقياس ، هى أكثرها تعرضًا للتمزق النفسى والانهيار الخلقى واندفاعًا نحو هاوية الصراع بين الأفراد والشعوب .

* * *

وحين بدأت الأمة العربية تأخذ طريقها لاكتشاف ذاتها وتأكيد انتمائها ، كان لابد من أن تهتدى إلى أصولها العريقة فى الفكر الحضارى المستمد من شريعة الله . ولم يكن هذا الطريق ميسرًا للرواد من سالكيه وللطلائع المكافحة فى كل ميادين التحرر وإثبات الذات ، لأنهم كانوا يشقون طريقهم وسط ركام ثقيل من الرواسب الفكرية التى فرضت على الأمة العربية خلال قرون متعاقبة ، ومنها ما فرضه المستعمر خلال العصور الأخيرة ، وبمقدار ما فرضه ودسه من هذه الأفكار

(١) الآية ١١٠ سورة آل عمران .

(٢) الآية ١٤ سورة الملك .

الدخيلة ، فإنه سلب الأمة العربية الكثير من مقوماتها الأصيلة فكانت ضربته فى اتجاهين نحو هدف واحد .

وكان أخطر ما فى الأمر أن استولى الوهم على الأمة العربية فى عصور الاستعباد والتخلف ، والشعور بالانبهار إزاء هذه الأفكار والقيم الأجنبية ، والاعتقاد بأنها السبيل الوحيد لبلوغ ما وصل إليه المستعمر من قوة وغلبة وحضارة . وقد وقع فى هذا الوهم الكثيرون ، ومنهم بعض قادة الفكر وحملة الأقلام ، حتى إن أحدهم لم يتردد عن القول بأننا إذا أردنا أن نبلغ ما بلغه العالم المتحضر فلابد أن نأخذ المدنية الغربية بما فيها من خير وشر .

وهذا وهم لم تقع فيه شعوب أخرى عرفت طريقها السوى لبلوغ أهداف التحرر والتقدم ، مثل الشعب اليابانى الذى لم يمنعه التزامه بقيمه وتقاليده وأسلوب حياته ومكونات شخصيته ، عن أن يأخذ من أسباب التقدم الحضارى ما جعله من أقوى الدول الصناعية وأغناها ، وأن ينافس الدول المتحضرة الكبرى فى ميادين الإنتاج والاقتصاد .

ولابد أن نشير هنا إلى أن كثيرًا من الأفكار الهدامة المدمرة لكيان الشعور ، هى وليدة خطة صهيونية تضمنتها « بروتوكولات حكماء صهيون » وهى أفكار تقوم على تدمير إنسانية الإنسان عن طريق الإلحاد وعبادة المادة والانغماس فى اللذة وتملق الغرائز الهابطة على مختلف الصور ، وتسخير المخترعات الحديثة لتحقيق ذلك : السينما والإذاعة المسموعة والمرئية ، وما تحمله من الكلمة والصور واللحن ومختلف وسائل الإخراج ، إلى غير ذلك من خطط الإفساد التى تنفثها المؤسسات الأخرى ومنها بيوت الأزياء ودور الإغراء والإغواء التى تلبس أقنعة الفنون .

وكذلك كانت الصهيونية وراء ترويج كل فكرة أو نظرية هدامة ، وتأليه أصحاب هذه النظريات والأفكار : دارون ، ماركس ، فرويد نيتشه . . .

وغيرهم ممن بدأت تتكشف عورات أفكارهم وتسقط دعائم نظرياتهم وتفقد ما كانت تبهر به الأبصار والعقول من بريق .

ولقد أصبح جليًا ما لهذه الخطة « الجهنمية » من أخطار تهدد كيان الأمم والأفراد من الداخل ، وتقضى عليها بالانحلال والسقوط ، وتفرض عليها الهزيمة فى كل ميدان . .

ولهذا كان لزامًا على الأمة وهى تستجمع قواها وتعيد بناء كيانها وتواجه تحديات أعدائها ، أن تستمد من مقوماتها الأصيلة عناصر هذه القوة ولبنات هذا البناء وأسلحة هذه التحديات .

وفى القيم الدينية معين لا ينضب من هذه المقومات ، وذخيرة لا تنفد لتحقيق هذه الأهداف . . .

* * *

وثمة مزالق يقعْ فيها البعض بحسن نية وهم يحاولون أن يحصلوا على تصور « مقنع » للقيم الدينية بأسلوب العصر .

منهم أولئك الذين يحاولون باسم التفسير العلمى للقرآن ، تأويل بعض آياته أو تحميلها بما تؤيده بعض الشواهد العلمية . وتلك قضية أمكن حسمها فى غير عناء ، واستدلالا بمنطق العلم نفسه الذى يقوم على الفروض والتجارب ، ويخضع لتغير المقاييس واختلاف النتائج ، مما لا يعطى حكمًا قاطعًا تكتب له القداسة والخلود . . .

ومنهم أولئك الذين يحاولون أن يرجعوا بعض المصطلحات والنظريات العصرية إلى أصول لها فى الإسلام ، فنسمع من يتحدث منهم عن « اليسار فى الإسلام » أو « ديمقراطية الإسلام » أو « اشتراكية الإسلام » إما دعمًا لهذه الظريات بمنطق الدين ، وإما بقصد عرض الدين فى زى عصرى حديث !

ووجه الخطأ فى هذا الأسلوب أن الإسلام منهج متكامل له أصوله ومبادئه ، وقد يلتقى مع كثير من المبادئ والنظريات التى تقدس كرامة الإنسان وحريته ، ولكنه يمتاز عنها بشموله وبأنه منهج « إلهى » يمد الفكر الإنسانى بعطائه السخى الذى يلبى جميع احتياجاته ، ويحفزه إلى مواجهة الحياة على هدى هذه الأصول والمبادئ ، لبلوغ الآفاق التى يرقى إليها الجهد الإنسانى فكرًا وسلوكًا . وليس الأمر على الصورة الأخرى التى يستمد فيها الدين أو يتقيد بنظريات تتناول جانبًا أو جوانب محدودة من الحياة ، وتتعرض من خلال التطبيق لكثير من التناقضات وضرورة التعديل والتبديل . . الأمر الذى يختلف اختلافًا جذريًّا عن طبيعة المنهج الدينى الذى يتسم بالشمول والخلود .

إن أولئك وهؤلاء يحاولون أن يحاكموا الدين إلى هذه الأفكار ، أو إلى ما يقعون تحت سلطانه من أهواء . وقد حسم الرسول ﷺ هذه القضية بقوله :

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به » .

لا حجرًا على العقول ، ولكن رجوعًا إلى الحق الذى لا تضل معه الأهواء ، ولا يصلح إلا عليه أمر الدنيا والآخرة .

٢

مع آية البر

تحدث القرآن الكريم عن القيم الدينية فى آية جامعة ، هى آية البر ، حيث قال تعالى :

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)[1].

---

(١) الآية ١٧٧ سورة البقرة.

إنها قيم ومبادئ ما استقرت فى مجتمع إلا كفلت له القوة والعزة ، وحققت التكافل والتراحم بين أفراده ، وأقامت علاقته بغيره من المجتمعات على أسس العدل والتعاون والسلام .

وهذه الآية الكريمة تبدأ فتجرد البر من المفهوم الشكلى عند بعض الناس وبعض الأمم ، أولئك الذين يتعلقون فى عبادتهم ومعاملاتهم بالمظاهر ، دون التعمق فيما وراء ذلك من أهداف ، وما يقوم عليه الدين فى حقيقته من تكوين العقيدة السليمة وتربية السلوك القويم . ولذلك يقول الله تعالى :

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) .

وذلك فى شأن القبلة التى يتجه إليها الناس فى الصلاة ، على اختلاف دياناتهم وعقائدهم ، ولكن البر أعمق من ذلك وأبعد غاية . . إنه العقيدة الجامعة ، والسلوك الذى يترجم هذه العقيدة إلى أعمال صالحة لخير الفرد والمجتمع .

وكان اليهود عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، ينكرون على المسلمين ذلك ويقول الله على لسانهم :

(مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا ؟) .

فيقول الله تعالى لرسوله :

(قل لله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[1] .

---

(١) الآية ١٤٢ سورة البقرة .

أما البر فهو الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين . أن تؤمن بالله الخالق المدبر الحكيم العليم ، فترتبط بمبدع الوجود الذى خلقك فسواك فعدلك ، والذى يحيى ويميت ، ويعز ويذل ، ويرزق من يشاء بغير حساب ، والذى وسعت رحمته كل شيء ، وهو على كل شيء قدير .

فمن يؤمن بالله يهد قلبه ، ومن يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها . ومن كفر بالله أو أشرك به فقد تنكر لفطرته ، وكان صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصَّعَّد فى السماء ، يمزقه الصراع والضياع وإن ملك الدنيا بين يديه .

* * *

والبر أن تؤمن باليوم الآخر ، يوم الحساب والجزاء على ما قدمت فى هذه الحياة :

(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا)(١) .

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)(٢) .

(يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِى كُنْتُ تُرَابًا)(٣) .

---

(١) الآية ٣٠ سورة آل عمران .

(٢) الآيتان ٨٨ و ٨٩ سورة الشعراء .

(٣) الآية ٤٠ سورة النبأ .

(يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(١) .

(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ، بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)(٢) .

ويقول الله تبارك وتعالى - فى شأن الحياة الدنيا والآخرة :

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ؟)(٣) .

إن الإيمان باليوم الآخر هو الذى يجعل للحياة الدنيا قصداً وغاية ، وهو الذى يؤكد قانون الثواب والعقاب ، وبذلك تجرى الحياة على مبادئ مقررة ونواميس ثابتة ، تنظم حياة الإنسان ومسيرته فى دنياه ، وتحدد علاقته بالمجتمع الذى يعيش فيه ، وتجعله مشدوداً فى ذلك إلى هدفه البعيد ، لا يعيش عبد اللحظة العابرة ، ولا يحجبه عن حقائق غده ضباب يومه ، وبذلك يسمو على واقعه ، ويتحرر من أغلال الضرورة ، ويكون مسيطراً على الحياة لا مستعبَداً لها ، مؤثراً فيها بما يجمّل وجه الحياة ويدفعها إلى طريق الخير والرشاد ، وينأى عن طريق الغى والظلم والفساد ، مؤمناً أن مقامه فى هذه الحياة الدنيا مرحلة من مراحل حياته التى بدأها

---

(١) الآية ٢٤ سورة النور .

(٢) الآية ١٢ سورة الحديد .

(٣) الآية ١١٥ سورة المؤمنون .

وهو جنين فى بطن أمه ، حيث كان يعيش هناك تسعة أشهر من عمره ، ينتقل بعدها إلى مرحلة أخرى فى هذه الحياة الدنيا ، فمنهم من يتوفى طفلا أو شابًّا ، ومنهم من يرد إلى أرذل العمر حتى يستوفى أجله المقدور على هذه الأرض ، ثم ينتقل إلى ما بعد هذه الحياة الدنيا حتى يبلغ الدار الآخرة ليجد هنالك كل ما عمل من خير أو شر محضرًا ، حيث تجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون .

وفى الربط بين الحياة الدنيا والآخرة يقول الله تبارك وتعالى :

(تِلْكَ ٱلدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)(١) .

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)(٢) .

* * *

وتتحدث آية البر عن الإيمان بالملائكة ، وهم - كما وصفهم القرآن - قوم مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

إنهم حملة وحيه إلى أنبيائه ورسله :

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)(٣) . .

وقد ينزل الملائكة فى صورة بشرية يعلمون الناس دينهم .

---

(١) الآية ٨٣ سورة القصص

(٢) الآية ١٩ سورة الإسراء .

(٣) الآية ٢ سورة النحل .

قال عبد الله بن عمر : حدثنى أبى عمر بن الخطاب قال :

بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لايرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يامحمد ، أخبرنى عن الإسلام .

فقال رسول الله ﷺ : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا .

قال . صدقت

قال عمر : فعجبنا له ، يسأله ويصدقه !

قال . فأخبرنى عن الإيمان .

قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره .

قال . صدقت ، أخبرنى عن الإحسان .

قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وبعد أن سأله عن الساعة وأماراتها ، قال عمر – رضى الله – ثم انطلق . . . فلبثتُ مليًّا ، ثم قال لى رسول الله ﷺ :

« ياعمر ، أتدرى من السائل ؟

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم » .

والملائكة جند الله ينصر بهم عباده المؤمنين ، ويثبت بهم قلوب المجاهدين .

يقول الله تعالى :

(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)[1] .

(إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ، فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)[2] .

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ . بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)[3] .

إنهم قوى يسخرها الله لنصر عباده المؤمنين ، حين يصدقون مع أنفسهم ومع الله ، يدعونه فيستجيب لهم ، وينزل الملائكة لتقاتل فى صفوفهم ، ويعدهم – مع الصبر والتقوى – بالبشرى والطمأنينة والتثبيت والنصر المبين . . .

* * *

---

(١) الآية ٩ سورة الأنفال .

(٢) الآية ١٢ سورة الأنفال .

(٣) الآيات من ١٢٣ إلى ١٢٦ سورة آل عمران .

ثم الإيمان بالكتاب والنبيين . . بالتوراة والإنجيل والقرآن ، بجميع الرسل والأنبياء ، لا نفرق بين أحد منهم . . إنهم مصابيح الإنسانية الهادية على تعاقب العصور والأجيال ، والإيمان بهم جميعاً مظهر من مظاهر الوحدة التى تجمع الإنسانية على كلمة سواء .

يقول الله تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسَى وعيسَى : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فيهِ)[1] .

ذلك لأن الدين واحد فى جوهره وإن اختلفت الشرائع باختلاف الأزمنة والعصور . ووحدة الدين تتمثل فى الإيمان بالله ، وفيما جاء به الرسل من مبادئ عامة لخير الإنسانية جمعاء .

والقرآن الكريم حين يقول : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ)[2] .

إنما يقرر حقيقة تاريخية على ألسنة جميع الرسل والأنبياء منذ عهد إبراهيم إلى عهد عيسى عليهما السلام .

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لكَ)[3] .

---

(١) الآية ١٣ سورة الشورى .

(٢) الآية ١٩ سورة آل عمران .

(٣) الآيتان ١٢٧ و ١٢٨ سورة البقرة .

(وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ : يَابَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) [1] .

وقال الله تعالى على لسان سليمان : (وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ) [2] .

وقال تعالى على لسان يوسف : (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) [3] .

(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) [4] .

آيات كثيرة تجمع على الإسلام جميع الرسل والأنبياء والمؤمنين بهم من أقوامهم :

---

(١) الآية ١٣٢ سورة البقرة

(٢) الآية ٤٢ سورة النمل .

(٣) الآية ١٠١ سورة يوسف .

(٤) الآية ٥٢ سورة آل عمران .

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)[1] .

(وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)[2] .

وفى الدعوة إلى وحدة العقيدة - وهى رسالة الإسلام العالمية - يقول القرآن الكريم :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ : أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)[3] .

* * *

بقى من القيم الدينية التى تضمنتها آية البر ، والتى نعرضها فى إجمال ، أن تؤدى حق الله فيما استخلفك فيه من مال ، ذلك أن المال مال الله ، وقد وضعه الله فى يدك لتنفقه فى مصارفه المشروعة ، تعميرًا وجهادًا فى سبيل الله ، وقد نظم الإسلام ذلك فى مبادئه وفى تطبيقاته على صورة ليس لها مثيل فى ظل أى تشريع أو تنظيم اجتماعى آخر ، لأنه جعل مناط الأمر إلى إيمان المرء وإيثاره ، لا إلى قانون يفرض ورقيب يحاسب . وهو حين فرض الزكاة بقانون جعلها الحد الأدنى للإنفاق فى سبيل المصلحة العامة للأمة ، ولذلك حارب أبو بكر - رضى الله عنه - لأول

---

(١) الآية ١٢٥ سورة النساء .

(٢) الايه ٢٢ سورة لقمان

(٣) الاية ٦٤ سورة آل عمران .

عهده بالخلافة مانعى الزكاة من المسلمين ، وقاتلهم عليها قتال المرتدين عن الإسلام .

أما ما وراء الزكاة المفروضة من الإنفاق فى مختلف وجوه البر ، فإن القرآن الكريم تضمن عديدًا من الآيات فى الحث على ذلك وتحبيب المؤمنين فى إيثار ما يبقى من أثر العمل الصالح على ما لا يبقى من المال وعرض الحياة ، ووعدهم بمضاعفة الأجر والثواب فى الدنيا والآخرة أضعافًا مضاعفة ، ومن ذلك قوله تعالى :

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ واللهُ يضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (١) .

ومن وجوه البر التى حث الإسلام على الإنفاق فيها أن تنفق من مالك ما تبرُّ به أقرباءك ، وتواسى به اليتامى والمساكين ، وتعين به ابن السبيل الذى انقطعت عنه موارده ، وتجيب به دعوة السائل المحتاج ، وتفتدى به الأسرى ، وتحرر به الرقاب من أغلال الذل والعبودية ، تفعل ذلك مؤثرا مرضاة الله على حب المال الذى هو طبيعة فى النفس . يقول الله تعالى :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) (٢) .

وأنكر الإسلام على من يحبسون المال عن مصارفه أيما إنكار ، وتوعدهم بسوء المنقلب وأشد العذاب :

---

(١) الآية ٢٦١ سورة البقرة .

(٢) الآية ٩٢ سورة آل عمران .

(والَّذِين يَكْنِزُون الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيل اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ، هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُون) [1] .

ومن خصال البر كذلك إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والوفاء بالعهد ، والصبر عند نزول المحن ومواجهة الشدائد وفى لقاء العدو ، خصال لا يلتزمها إلا بَرٌّ مؤمن صادق الإيمان قوى الإرادة ، عظيم التكريم والجزاء :

(إِنَّ الْأَبْرار لَفِي نَعِيمٍ . عَلَى الْأَرَائِكَ يَنْظُرُونَ . تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرة النَّعِيمِ . يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ . خِتَامُهُ مِسْكٌ وفِي ذلكَ فَلْيَتَنافس الْمُتَنَافِسُونَ) [2] .

وتحدث الرسول ﷺ عن البر فقال :

« البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهتَ أن يطلع عليه الناس » .

وكما أن البر جمع من الخصال ما تكمل به أهلية الإنسان ، وما يكفل له السعادة فى دينه ودنياه وآخرته ، فإن الإثم على نقيض البر فى صفته وآثاره . فما من خصلة طيبة من خصال البر يتركها الإنسان إلى نقيضها إلا كان آثمًا قلبه ، مذنبة

---

(١) الآيتان ٣٤ و ٣٥ سورة التوبة .

(٢) الآيات من ٢٢ إلى ٢٦ سورة المطففين .

جوارحه ، منحرفًا عن الحق إلى الباطل ، ومن الهدى إلى الضلال . وبذلك يهدر إنسانيته ، ويذل كرامته ، ويخون أمانته ، ويصبح وبالا على نفسه وعلى الناس .

ولقد يشتبه على الإنسان أمر ، أو يزين له الشيطان وقرناء السوء اقتراف الإثم فى لحظة من لحظات الضعف ، أو خضوعًا لوسائل الفتنة والإغراء ، فيختلط عليه الحق والباطل ، ويقع فى حيرة بين الهدى والضلال ، وتختل أمامه الموازين والمقاييس . فماذا يفعل ليبدد ضباب الحيرة ويهتدى إلى وجه الحق والصواب ؟ .

هنا يضع الرسول ﷺ فى يدك مفتاح الموقف ، ويضىء لك الطريق بكلمات قصار حين يقول : « الإثم ما حاك فى صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » . ذلك أن الحلال بين والحرام بين ، ثم إن الذى يقع فى الإثم أو يخالف قوانين المجتمع يدرك تمامًا أنه مخطئ ، وهو يرتكب ذلك فى غفلة عن الأعين ، متدثرًا بالظلام والاستخفاء ، حريصًا على ألا يراه أحد وهو يرتكب الجريمة ويقع فى الإثم .

وحسب الإنسان أن يستشعر ذلك الإحساس حين يهم بأمر من هذه الأمور لينجو بنفسه من الوقوع فيه ، ويجنب نفسه عقاب المجتمع أو عذاب الضمير .

٣

لماذا نؤمن بالغيب ؟

الإيمان بالغيب من القيم الدينية التى تقوم عليها العقيدة ، ويرتبط بها فكرُ الإنسان وسلوكه فى هذه الحياة . بل إن الإيمان بالغيب هو أساس العقيدة الدينية ، لأنه إيمان بما جاء به الوحى الإلهى ، ونطق به الرسول الصادق المعصوم ، وأساسُ العقيدة الدينية هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

فأنت تؤمن بالله دون أن تراه .

وتؤمن بالملائكة وهم خلق غير مَرْئى .

وتؤمن بالرسل عن طريق مايذكره القرآن الكريم من أنباء الغيب .

وتؤمن بالكتب المقدسة وحيًا من عند الله لهداية البشر .

وتؤمن باليوم الآخر ، حيث البعث والنشور ، وحيث الجزاء الحق على ماقدمت فى هذه الحياة .

والإيمان بالغيب كان – ومايزال – أصلا من أصول الفطرة الإنسانية منذ درج الإنسان فى مهد الوجود ، حتى بلغ مابلغه من تجارب العلم والكشف عن بعض مجاهل الكون والحياة .

فقد كان الايمان بالغيب فى مدارج الإنسانية الأولى نابعًا من التركيب الفطرى لملكات الإنسان وغرائزه فى تطلعه إلى ماوراء المظاهر المادية من أسرار ، وماوراء الظواهر الكونية من غيوب . توجهه فى هذا التطلع رسالاتُ السماء ، بما تقص عليه من أنباء الغيب ، وماتثير فى نفسه من أشواق التفكير فى ملكوت السموات والأرض ، فلما قطع العقل البشرى أشواطًا فى تصور حقائق الكون والحياة ، وكشفت له التجاربُ العلمية آفاقًا كثيرة كانت من الغيب المحجوب ، اكتسبت عقيدة الإيمان بالغيب مصادر أخرى غير مصدر الملكات والغرائز والوحى الإلهى ، هى مصادر العلم التجريبى بما وصل إليه من كشوف فى مجال النفس البشرية ومجالات الكون والحياة ، ومعرفة الحدود التى تقوم عليها الصلة بين الإنسان ومايحيط به من عوالم الحس ومناطق الغيب فى الزمان والمكان .

على أن البشرية لم تخل فى مختلف العصور وعلى تعاقب الأجيال من أناس ينكرون الغيب ولايؤمنون إلا بما تقع عليه الحواس . كان كذلك بنو إسرائيل الذين أظلمت قلوبهم وسيطرت المادة على حياتهم وتفكيرهم ، وبلغ بهم الأمر فى شأن العقيدة الدينية أن قالوا لنبيهم موسى :

(لَنْ نُؤمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَة !)[1] .

وإذا جازت هذه « المادية » الغليظة فى العصور الغابرة التى كان الفكر الإنسانى يَقْصُرُ خلالها عن تصور الحقائق الدينية العليا ، ولايستطيع فى حركته وتصوراته أن

---

(١) الآية ٥٥ سورة البقرة .

يتحرر من قيود الحواس وأغلال المادة ، أو فى عصور « المراهقة » العقلية التى كان الفكر الإنسانى مفتونًا خلالها بما كشفت عنه تجاربه الأولى من حقائق علمية تختلف أو تتناقض مع ماورثه من تصورات دينية وتفسيرات للظواهر الكونية كانت مثار خلاف عنيف فى أوربا بين رجال الكنيسة وعلماء الفلك والطبيعة .

إذا جازت هذه « المادية » فى تلك العصور ، فإن الأمر فى عصرنا هذا ، عصر الفتوحات العلمية والكشوف الكونية يختلف عن ذلك أشد الاختلاف ، بعد أن صار الإيمان بالغيب من القِيم العلمية ، وصار العلم دليلا يؤيد وجود عالم الغيب ، أو على الأقل لاينكر وجود هذا العالم المحجوب ، وأصبحت هذه العقيدة مُنْطَلَقًا إلى كشف حجبه وارتياد مجاهله ، فى تواضع يقف بالإنسان وقدراته ووسائله العلمية المتاحة عند الحدود التى لايستطيع أن ينكر ماوراءها من الغيب المحجوب ، لمجرد أنه لايقع تحت حواسه أو لاتبلغه قدراته ووسائله العلمية المتاحة ، ذلك لأن عدم « وجدان » شىء لاينفى وجوده .. إذا احتكمنا إلى منطق العقل ومنطق العلم الذى يكشف كل يوم جديدًا فى عالم الغيب المحجوب . ومازالت أمامه أشواط بعيدة وآفاق واسعة يحاول أن يجد لديها تفسيرًا لكثير من أسرار الحياة والوجود .

إن الحواسَّ الخمس المعروفة ، وهى اللمس والنظر والشم والسمع والذوق ، لم تعُدْ وحدها هى الحواس التى تعكس للإنسان حقيقة ماحوله من الأشياء ، فقد عرف العلم الحديث حواس أخرى منها مايسمى بالحاسة السادسة ، كما أثبت وجود ملكات نفسية تتجاوز آفاق الحواس المعروفة ، وتحطم الحواجز التى كانت تقف عندها هذه الحواس ، والتى كانت تبرر الزعم بأنه ليس وراء عالم الشهادة إلا العدم المطلق والتصور الخرافى العقيم .

ومع ذلك فلْنقف قليلا عند هذه الحواس .. لنناقش فى ضوء ماكشفه العلم

قيمة هذه الحواس فى التعرف على حقيقة « الماديات » التى تقع تحت إدراكها ونضرب مثلا لذلك بالأذن ...

هل نستطيع أن نقول إن كل مالا تسمعه الأذن – وهى الأداة الوحيدة للسمع – يعتبر غير موجود ؟

الجواب عن ذلك بمنطق العلم الحديث : لا . إن هناك من الأصوات « الموجودة » مالا تسمعه الأذن ، وهنا يسقط منطق من لايؤمن بالغيب المحجوب عن سمعه اعتمادًا على أن أذنه لاتسمع هذا الغيب « المزعوم » .

ذلك لأن الأذن لها حساسية خاصة للأصوات التى تقع تَرَدُّدَاتها فيما بين ألف وثلاثة آلاف ذبذبة فى الثانية . وإذن فهى لاتسمع الموجات الصوتية التى يطلق عليها « تحت السمعيات » ولا الموجات الصوتية التى يطلق عليها « فوق السمعيات » . ويعتبر عدم حساسية الأذن البشرية للاهتزازات ذات الترددات المنخفضة من النعم العظيمة التى يتمتع بها الإنسان ، فهى تحول دون سماعه لضربات قلبه ، ولولا ذلك لكان لضربات القلب ضجيج لاينقطع[1] !

فماذا تعنى هذه الحقيقة التى كشف عنها العلم الحديث ؟

تعنى أن فى الوجود تموجات صوتية لاتسمعها الأذن بتركيبها « العادى » وأن ذلك لايمنع أن يسمع إنسان « ما » أصواتًا لايسمعها غيرهُ ، إذا اختلفت حساسية أذنه ، أو قدرتها على استقبال هذه الأصوات .

ومالنا نذهب بعيدًا ، وأمامنا الأمثلة « المادية » التى حققها العلم فى هذا المجال ، والتى تؤكد النظرية وتقرب الصورة للأذهان ؟

---

(١) كتاب « أصوات لا تسمع » تأليف ب . قدريا فستف . ترجمة الدكتور سيد رمضان هدارة .

إن « الراديو » يردد الأصوات البعيدة المرسلة من أقصى الأرض عندما تحرّك موشره نحو محطة من محطات الإرسال هناك . وإن « التليفزيون » ينقل إليك الصوت والصورة ، فهو يجمع بين عمل حاستين من الحواس : الأذن والعين ، على بُعد مصدر الصوت والصورة آلاف الأميال .

فهل بعد هذا نستطيع أن ننكر ، وباسم العلم ، وجود الصوت والصورة فى عالم الغيب ، لمجرد أن الأذن لاتسمع هذا الصوت ، وأن العين لاترى هذه الصورة فى عالم الشهادة ، عالم المادة المحسوسة بالآذان والعيون ؟

وقل مثل ذلك عن غيرهما من الحواس .

وهناك أمثلة كثيرة على حدوث « التَّلَقِّى » فى عالم الغيب ، كسماع الأصوات الصادرة من بُعْد بعيد ، ورؤية الصور التى تحجبها المسافات الطويلة ، وغير ذلك من القدرات الخاصة فى الاتصال بعالم الغيب المحجوب عن الحواس .

أمثلة كثيرة كانت موضع الإنكار من قبل ، وكان البعض يعتبرها من الظنون والأوهام ولكنها اليوم أصبحت موضع التصديق ، لأنها أصبحت فى حكم اليقين .

ونقف وقفة متأنية أمام عبارة سابقة تقول :

« إن عدم حساسية الأذن البشرية للاهتزازات ذات الترددات المنخفضة ، من النعم العظيمة التى يتمتع بها الإنسان ، فهى تحُولُ دون سماعه لضربات قلبه ، ولولا ذلك لكان لضربات القلب ضجيج لاينقطع » .

فماذا تعنى هذه العبارة مرة أخرى ؟

ماأيسر ، وماأخطَر الجواب !

إنها تقدم للإنسان « حقيقة » مادية تَجَبَهُ [1] بها غرورَه وتَطَلُّعَه إلى مالا يطيق

(١) تفاجئ ، تصدم .

من العلم . العلم اللانهائى للكون والحياة ، علمِ الغيب المحجوب عن الأسماع والأبصار وغيرها من ملكات النفس وسائر الحواس .

فلو قد كُشِفَ له كل مافى الكون من غيوب لَصَعِق !

بل إنه ليصعق حين يُكشف له أدنى قدر من هذه الغيوب لاطاقة لحواسه ولملكاته على استقباله . وهذا هو المثل الذى تتوارد معه آلاف الأمثلة ، تقدمه الحقيقة العلمية عن الأذن البشرية .

هى إذن نعمة كبرى يتمتع بها الإنسان ، حين يلتزم حدوده التى أحاطته بها العناية الإلهية ، وليست « نقيصة » فيه يحاول التمرد عليها بالكفر والإنكار .

وإنما اختص الله وحده بعلم الغيب ، لأنه الحقيقة الكبرى المحيطة بكل ما فى الوجود .

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلاَّ مَن ارْتَضَى مِن رَّسُول) [1] .

وحتى هؤلاء الرسل لهم طاقة محدودة للاستقبال ، ومحيط معين للمشاهد الغيبية ، إن بدا لأحدهم أن يتجاوزه صعق !

وهذا ماحدث لموسى عليه السلام ، حين جاء لميقات ربه وكلمه الله .

(قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِى وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَل جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ

---

(١) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ سورة الجن .

إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)[1] .

هذا عن الحواس المعروفة ومداها المحدود فى إدراك حقائق الوجود ، وعن الملكات النفسية فى إمكان تجاوزها حدود الزمان والمكان .

فماذا عن « المادة » التى يتكون منها عالَم الشهادة ، والتى لايؤمن البعض إلا بها ويكفرون بما وراءها من غيوب ؟

هذه المادة التى تبدو فى صورتها الصلبة أو السائلة ، الحية أو الجامدة ، المضيئة أو المظلمة .. ليست فى حقيقتها العلمية إلا « طاقة » تتشكل وفقًا لقوانين معينة فى التركيب والسرعة تعطى كل كائن شكلَه المادى .

هذه المادة التى تتكون منها جميع المحسوسات ... الأرض وماعليها من جبال ومحيطات وأنهار ، ومافى باطنها من معادن ، ومايعمرها من إنسان وحيوان ونبات ، وماأنتجته جهود البشر من عمارة وصناعات . ثم هذه الأجرام السماوية ومافيها من شموس وأقمار ومذنبات ونجوم .

ماذا بقى إذن مما يقال إنه عالم « المادة » أو عالم الواقع المحسوس ؟

بقى ماوراء هذه المادة ، أو على الأصح ماوراء هذه الطاقة .

بقى الغيب المحجوب الذى يقف العلم على شاطئه وهو حائر مشدوه . إنه يستطيع أن يحلل ويعلل الظواهر ، ولكنه عاجز كل العجز عن إدراك ماوراء هذه الظواهر من حقائق تتحدى العقول .

وهذا « آينشتين » أعلم علماء الأرض فى الكون وظواهره ، يتحدث فى تواضع العلماء عن شعوره أمام هذه الغيوب فيقول :

« إن أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها ، تلك التى تستشعرها النفس

---

(١) الآية ١٤٣ سورة الأعراف .

عند الوقوف فى روعة أمام هذا الخفاء الكونى .. إن الذى لاتجيش نفسه لهذا ولاتتحرك عاطفته ، حىٌّ كَميّت .. إنه خفاء لانستطيع أن نشق حجبه ، وإظلام لانستطيع أن نُطلع فجره ، ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئًا هو الحكمة .. أحكم ماتكون ، ونحس أن وراءه شيئًا هو الجمال .. أجمل مايكون وهى حكمة ، لاتستطيع أن تدركها عقولنا القاصرة إلا فى صور بدائية أولية ، وهذا الإدراك للحكمة ، وهذا الإحساس بالجمال فى روعة ، هو جوهر التعبد عند الخلائق »(١) .

ويقول ا . كريسى موريسون ، الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك :

« إن المعارف الجديدة التى كشف عنها العلم ، لَتَدَعُ مجالاً للاعتقاد بوجود مدبّر جبار وراء ظواهر الطبيعة . وهذا ضوء يُلْقى على الخفاء الوسيع الذى يحيط الآن بما هو غير معروف لنا ظاهريًّا ، وقد يقودنا هذا الضوء إلى الاعتراف بوجود عقل عام أسْمَى ، أى إلى وجود الخالق » .

ثم يعود فيقول :

« إن وجود الخالق ، تدل عليه تنظيمات لانهاية لها ، تكون الحياة بدونها مستحيلة . وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض ، والمظاهر الفاخرة لذكائه ، إنما هى جزء من برنامج ينفذه بارئ الكون .. وإنى لأورد قول « أوسبورن » فى هذا المجال : « بين جميع الأشياء التى لايمكن إدراكها فى الكون ، يقف الإنسان فى الطليعة ، وبين الأشياء التى لايمكن إدراكها فى الإنسان ، تتركز الصعوبة الكبرى فيما له من مخ ، وذكاء ، وذاكرة وآمال ، وقوة كشف وبحث ، وقدرة على تذليل العقبات »(٢) .

---

(١) كتاب « مع الله فى السماء » تأليف الدكتور أحمد زكى .

(٢) كتاب « العلم يدعو إلى الإيمان » ترجمة محمود صالح الفلكى .

وبعد ، فهل مؤدى ذلك أن يقف الإنسان عاجزًا معطّلاً أمام الغيب المحجوب في الكون والحياة ؟ . .

كلا .. بل إن الأمر على العكس ..

إن الإيمان بالغيب هو مصدرُ النشاط العلمى للكشف عن كل مجهول ، وإلا عطّل الإنسان مواهبه وملكاته ، وتوقّف العلم عن تجاربه ومحاولاته التى تكشف له كل يوم عن جديد فى الكون والحياة .

يقول آينشتين :

« إن الشعور الدينى الذى يستشعره الباحثُ فى الكون ، هو أقوى حافز على البحث العلمى ، وأنبل حافز »[1] .

وفى الربط بين الدينِ والعلم يقول القرآن الكريم :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)[2] .

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِم وَيَتَفَكَّرُونَ فى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا باطِلاً سُبْحَانَك فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)[3] .

(وَفى الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفى أَنْفُسِكُمْ أَفلاَ تُبْصِرُونَ)[4] .

---

(١) كتاب « مع الله فى السماء » .

(٢) الآية ٢٨ سورة فاطر

(٣) الآية ١٩١ سورة آل عمران .

(٤) الآيتان ٢٠ و ٢١ سورة الذاريات .

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَىءٍ)[1] .

(سَنُرِيهم آيَاتِنَا فى الآفَاقِ وفى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)[2] .

... وآيات أخرى كثيرة تحث على التفكر فى ملكوت السموات والأرض ، وتثير فى العقل البشرى أشواقه إلى المعرفة ، وتدفع بالعلم لاستجلاء حقائق الوجود ، وتنعى على الذين عطلوا مواهبهم وملكاتهم وحواسهم ، تجرُّدَهم بذلك من مميزاتهم الإنسانية وهبوطَهم إلى مستوى البهائم .

وفى ذلك يقول الله تعالى :

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِن والْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُون بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُن لاَيُبصِرُون بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُون بِهَا ، أُولَئِك كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)[3] .

وهذه الغفلة عن الحقائق الكبرى ، وأولها الإيمان بالغيب ، وهو أساس الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وافتتان الإنسان بظواهر الطبيعة وإنكار البعض لما وراء هذه الظواهر فى نفسه وفى الكون ، هو الذى أوقع الإنسان فى

---

(١) الآية ١٨٥ سورة الأعراف

(٢) الآية ٥٣ سورة فصلت .

(٣) الآية ١٧٩ سورة الأعراف .

مهاوى الحيرة والتخبط وأبعده عن فطرته السليمة ، وأضله عن حقائق وجوده وصلته بالكون والحياة .

وهكذا لايكون أمام الإنسانية لكى تبلغ غايتها فى ألفة عميقة مع الكون والحياة وفى توازن بين حقائق وجود الإنسان فى عالم الشهادة وعالم الغيب ، إلا بأن يكون الإنسان صادقًا مع قوانين فطرته ، هذه الفطرة التى تؤمن بالغيب حقيقة دينية وعلمية ، ترتفع بالإنسان عن « واقعه » المادى الذى يهدر إنسانيته ويقعد به عن الانطلاق إلى أهدافه البعيدة لتطوير هذا الواقع وترقيته إلى المستوى الذى يليق بمكانة الإنسان وكرامته فى الحياة ، وتحفز قدراته وأشواقه للكشف عن المجهول واستجلاء عالم الغيب . وهل يتجه الإنسان بعقله وعلمه إلى هذه الأهداف البعيدة إلا إذا كان مؤمنًا بأن وراء هذه الظواهر الكونية حقائق خالدة ؟

٤

وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟

وإن من الحقائق الواضحة فى مجال النشاط العلمى الحديث ، أنه قطع أشواطًا واسعةً فى علوم الطبيعة ، وحقق انتصارات كبيرة فى عوالم الذرة والفضاء ، واستطاع أن يُجرى تجارب فى زراعة أعضاء الجسم وأهمها زراعة القلب .

ولكن هذا النشاط العلمى الرائع فى مجال الطبيعة الكونية والتشريحية ، يقابله قصور واضح فى ميدان آخر لايقل أهمية إن لم يزد عن غيره من الميادين . ذلك هو ميدان الإنسان نفسه ، لامن حيث تركيبه البيولوجي أو الفسيولوجى ، ولكن ماوراء ذلك من أعماق « غيبية » تكمن فيها أسرارٌ لاحدَّ لها ، وبدون الوصول إلى هذه الأعماق يبقى كثير من الظواهر البيولوجية والفسيولوجية نفسها ألغازًا غامضة تثير عديدًا من الأسئلة التى لاتظفر بجواب .

يقول الكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل فى الطب والجراحة ، والعالم

المتخصص فى بحوث الخلية ونقل الدم والأعضاء :

« من الواضح أن جميع ماحققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان غير كاف ، وأن معرفتنا بأنفسنا مازالت فى الغالب معرفة بدائية . والواقع أن جهلنا مطْبق ، فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا الباطنة غير معروفة » [1] .

ولنأخذ مثلا نبدأ به مناقشة هذا الموضوع .

هذه « النطفة » التى تحتوى على جرثومة الحياة نقطة « البروتوبلازم » التى لاتكاد تُرى والتى تتكون منها خلية الأجسام الحيوانية والنباتية ...

إن هذه النطفة الحية يتضاعف تكوينها الداخلى ، ولها القدرة على الانقسام والتعدد أضعافًا مضاعفة إلى ملايين الملايين ، ومنها تتكون خلايا الكائن الحى من الإنسان والحيوان والنبات . فكيف يتم هذا « التنويع » مع وحدة التكوين ، فتصير هذه الخلايا إنسانًا ، وتصير تلك الخلايا غزالا ، أو تصير مجموعة من الخلايا شجرة برتقال ؟

وهذه الخلايا التى يتكون منها جسم الانسان ، كيف يتحول بعضُها إلى أذنين ، والبعض الآخر إلى قلب أو رئة أو لسان ؟

أسئلة لايجد لها العلم حتى الآن أى جواب .

ولكنها تؤكد فى الوقت نفسه « حقيقة » لاتقبل الإنكار ، هى أنَّ وراء هذه الحركة البيولوجية تدبيرًا محكمًا أعطى هذه « النطفة » خصائص التكاثر والتشكل فى دقة معجزة وقصد عجيب .

---

(١) كتاب « الإنسان ذلك المجهول » تأليف الكسيس كاريل ترجمة شفيق أسعد فريد .

ولقد وصل العلم إلى أبعد من هذه الأعماق فى تكوين الإنسان وغيره من الكائنات الحية. فهذه «الخلية» تحتوى على عناصر عجيبة هى: الكروموزومات، والجينات، والسبتوبلازم. والجينات هى وحدات الوراثة التى تحمل الخصائص الفردية وأحوالها النفسية وألوانها وأجناسها لجميع المخلوقات البشرية على ظهر الأرض جيلا بعد جيل. ولجميع الكائنات الحية من نبات وحيوان ...

فمن الذى أودع الخلية هذه «الجينات» التى تحفظ لكل كائن حى خصائصه الوراثية على تعاقب القرون والأجيال؟..

سؤال آخر لايملك له العلم جوابًا حتى الآن.

ولكنه يؤكد كذلك «حقيقةً» لاتقبل الإنكار، هى أن وراء هذا التكوين العجيب للخلية الحية تدبيرًا محكمًا أعطى هذه «الجينات» القدرة على حمل الخصائص الوراثية لكل كائن فى هذه الحياة.

جواب واحد على هذا السؤال وغيره من الأسئلة يبدد الحيرة، ويلتقى عنده العلماء والذين يؤمنون بالغيب:

﴿قَالَ: رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[1].

وهذه الآفاقُ الواسعة ذات الأعماق البعيدة للنفس البشرية، فى قدرتها على الإحساس والإلهام والكشف والاتصال والأحلام التى تتحقق مثل فلقِ الصبح.

وهذه الموجاتُ المغنطيسية التى يستقبلها المخ حين يكون مُركزا على نَحوْ ما، فيتم عن طريقها انتقال الصورة أو الكلمة بين شخص وآخر.

---

(١) الآية ٥٠ سورة طه.

إنها ظواهر من عوالم النفس الإنسانية ، تضاف إلى غيرها من عجائب تكوين الإنسان . وكلها تردد أصداء قوله تعالى :

(وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ؟)[1] .

* * *

ولكن ماالذى انحرف بالعلم عن البحث فى الجانب النفسى والباطنى للإنسان ، بالقدر الذى اتجهت إليه الجهودُ للبحث عن الجوانب المادية فى الحياة ؟ .

إن هذا الاتجاه الذى أخَلَّ بالتوازن العلمى فى تقييم الحياة الإنسانية جاء نتيجة للنظريات التى اعتبرت الإنسان آلةً جسدية قِوَامُها المطالب المادية فحسب ، ومن ثَمَّ فليست حياة الإنسان بما فيها من مُدْرَكَات معنوية إلا انعكاساً لهذه الحياة المادية !

ولا جدال فى أن للإنسان جانبه المادى ، ولكنه ليس الجانب الوحيد فى حياة الإنسان ، لأن وراءه « الطاقة » ذات الخصائص الروحية ، التى يعتبر هذا الهيكل المادى مظهرًا لها . كما أثبت العلم فى كشوفه التحليلية للمادة ، والتى وقف العلم عاجزًا مبهورًا أمام ماوراءها من أعماق وغيوب .

على أن العلم لم ينصرف كُلِّيَّةً عن محاولاته وتجاربه فى مجال الروح الإنسانى ، والكشف عن أعماق النفس البشرية ، حتى فى الفترات التى طغت فيها الفلسفة المادية على العقول ، وكادت تكون السمَةَ الغالبة للعلم والعلماء .

ومع تقدم العلم الحديث وماأحرزه من انتصارات بعد الوصول إلى أعماق الذرة ، وجد العلماء أنفسَهم وجهًا لوجه أمام الحقائق « الروحية » التى قد لايؤمن

---

(١) الآية ٢١ سورة الذاريات .

بها البعض ولكنهم فى الوقت نفسه لايستطيعون إنكارها ، وتَحَطَّمَ صنمُ « المادة » الذى كان إلى عهد غير بعيد معبود العلم والعلماء .

وبدأت صفحة جديدة فى تاريخ العلم سجل فيها العلماء كثيرًا من الحقائق « الغيبية » التى أدت إليها الكشوف العلمية أو النتائج العقلية المبنية على التفكير العلمى ، وأهَمُّ هذه الحقائق مايتصل بالجانب الروحى فى الإنسان وصلته بالكون والحياة .

قال آينشتين : « إن الإنسان الذى لم يختبر وقفةً من وقفات الصوفية حيال ذلك العالم ، ولم يشعر نحوه بالروحية ، هو حى حكمُهُ حكمُ الميت . ولُبُّ الديانة عندى أن الذى لاننفذ إليه بمداركنا هو موجود حقًّا متجلّ حقًّا ، يطالعنا بالحكمة العليا والجمال الرائع ، ولا تحيط عقولنا الكليلة منه إلا بأشكال بدائية كالظلال » .

وقال راسل والاس : « إن الكون المادى ليس إلا مظهرًا للكون الروحانى ، وإن فى الكون الروحانى أنماطًا من العوامل الفعالة من القوى العليا إلى الأرواح الكائنة فى الخلايا الحية » .

وقال ا . كريسى موريسون : « إن التطور الروحى للإنسان هو الآن فى الهداية ، والقبسُ الإلهى قد بدأ يسيطر فى بطء على عقله المادى.ونحن إذا فكرنا فى الفضاء الذى لايفتأ يمتد أمامنا ، وفى الزمن الذى لابداية له ولانهاية ، وفى الطاقة المحبوسة فى الذرة ، والجاذبية وسيطرة القوانين الطبيعية على العالم ، إذا فكرنا فى ذلك أدركنا أننا لانعرف فى الحق إلا القليل » [1] .

---

(١) كتاب « العلم يدعو للإيمان » ترجمة محمود صالح الفلكى .

٥

هل رأيت ربك .. ؟

وقد سئل الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه :

ياأمير المؤمنين ، هل رأيتَ ربك ؟

قال : أوَأعبُدُ مالا أرى ؟

قيل : وكيف تراه !

قال : لاتدركه العيونُ بمشاهدة العيان ، ولكن تدركه القلوبُ بحقائق الإيمان[1] .

وهذا التطلع لمعرفة الذات الإلهية نابع من أعماق الفطرة الإنسانية ، كمظهر من مظاهر إحساس الإنسان بالحاجة إلى معرفة حقيقة وجوده وصلته بمبدع هذا الوجود .

---

(١) كتاب « نهج البلاغة » للإمام على بن أبى طالب .

إحساسٌ فطرى تختلف وسائل التعبير عنه ، باختلاف مراتب الفكر الإنسانى وتطوره فى مراحل المعرفة .

يمثلُ هذا التطور ماجاء فى قصة إبراهيم عليه السلام .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فى ضَلاَلٍ مُبِينٍ . وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّى ، فَلَمَّا أَفَلَ (١) قَالَ لاأُحِبُّ الآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّى ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ (٢) السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا (٣) وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (٤) .

صورةٌ موجزة فى حياة إبراهيم ، لكنها تمثِّل أبعادًا مديدة تنتظم تَصَوُّرَ الإنسانية للذات الإلهية على تعاقب العصور وتطور الأفكار .

---

(١) غاب .

(٢) خلق .

(٣) مائلا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق .

(٤) الآيات من ٧٤ إلى ٧٩ سورة الأنعام .

تبدأ هده الصورة بعبادة الأصنام ، وهى مرحلة قاصرة تعتمد على « تجسيم » المعبود بحيث تلمسه الأيدى وتراه العيون !

وحين ارتقى التصورُ الإنسانى للذات الإلهية مرتبةً أخرى ، لم يستطع الناسُ ، أن يتخلصوا من العبودية لغير الله ولكن بمفهوم آخر ، حيث قالوا :

(مَانَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى [1]) [2] .

وهناك عبادةُ الظواهر الكونية التى تبهر الإنسانَ فى مرحلة من مراحل تصوره : الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والنار ، والأنهار .

وهناك عبادة القُوى غير المنظورة التى تبعث فى نفسه الرغبة أو الرهبة ، حيث اعتقد بوجود إله للخير ، وإله للشر ، وآلهة أخرى لمختلف المعانى المؤثرة فى حياة الإنسان .

وسيلةٌ واحدة اهتدت بها البشريةُ إلى الذات الإلهية ، بعد أن جربت مختلف الوسائل ، هى التى تتمثل فى قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام .

(إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

إنها معرفة الله عن طريق النظر فى مُلكوت السموات والأرض .. ولهذا قال رسول الله ﷺ :

« تَفَكَّرُوا فى خَلْقِ اللهِ ، وَلاَ تفَكَّرُوا فى اللهِ فَتهْلكُوا » .

ولهذا كانت الحجةُ القرآنية على من ينكرون وجودَ الله أو يشركون به شيئًا ،

(١) منزلة .

(٢) الآية ٣ سورة الزمر .

وكان التوجيهُ القرآنى لمصادر الإيمان بالله .. هو الدعوة إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض ومابَثَّ فيهما من دابة .

قال الله تعالى :

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فى مَلَكُوتِ السَّمواتِ والْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيءٍ)[1] .

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِنْ فُرُوج [2] . وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ [3] . وأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيب [4] . ونَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ)[5] .

(أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)[6] .

---

(١) الآية ١٨٥ سورة الأعراف .

(٢) شقوق وصدوع . أى ليس فيها عيب ولا خلل .

(٣) جبالا ثابتة .

(٤) راجع إلى ربه .

(٥) الآيات من ٦ إلى ١٠ سورة ق .

(٦) الآيات من ١٧ إلى ٢٠ سورة الغاشية .

ويتحدث القرآن عن آيات الله فى الكون والحياة ، هذه الآيات التى تثير الفكر الإنسانى وتقوده إلى معرفة الله والإيمان به فيقول :

(إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ، وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)(1) .

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ والشَّمسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدوا للهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُم إِيَّاه تَعْبُدُونَ)(2) .

(وَمِن آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ)(3) .

(فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)(4) .

---

(١) الآية ١٦٤ سورة البقرة .

(٢) الآية ٣٧ سورة فصلت .

(٣) الآية ٢٢ سورة الروم .

(٤) الآيات ٥ ، ٦ ، ٧ سورة الطارق .

(هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُم لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكونُوا شُيُوخًا ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [1] .

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ منْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وجعلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إنَّ فى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتفكَّرُونَ) [2] .

ويقول القرآن مصورًا أثر هذه الآيات الكونية عند ذوى العقول البصيرة :

(إِنَّ فى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلاف اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآياتٍ لأُولى الْأَلْبَاب . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ، وَيَتفكَّرُون فى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذا باطِلاً سبحانَكَ ...) [3] .

وهذا هو الطريق إلى معرفة الله ..

التفكرُ فى ملكوت السموات والأرض بما أودع الله فى الإنسان من عقل وفكر ، وليس التطلع إلى رؤية الله جل جلاله بحاسة النظر .

الاستدلال بالمخلوقات على وجود الخالق .

---

(١) الآية ٦٧ سورة غافر .

(٢) الآية ٢١ سورة الروم .

(٣) الآيتان ١٩٠ و١٩١ سورة آل عمران .

الاستدلال بما يحكم الكونَ من نواميس تجرى به على بصيرة وهدى ، آيةً على التدبير المحكم والقصد الإلهى .

وهذا التفكير يعكس تجاربه على القلب فيثير فيه ألوانًا أخرى من المعرفة هى التى وصفها الإمام على بأنها « حقائق الإيمان » .

ومرة أخرى سُئل الإمام على أن يصف الله كأنه يراه عيانًا ، فغضب لذلك غضبًا شديدًا ، وقال للسائل فيما قال :

« ... فانظر أيها السائل فما دلَّك القرآن عليه من « صفته » فأْتمّ به واستضئ بنور هدايته ، وما كلَّفك الشيطان علمه مما ليس فى الكتاب عليك فرضه ، ولا فى سنّه النبى ﷺ أثره فكِلْ علمه إلى الله سبحانه . فإن ذلك منتهى حق الله عليك . فاقتصر على ذلك ولاتقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين »[1] .

ذلك لأن الإنسان محكوم فى هذه الحياة بالقوانين التى تحدد مجال قدراته ، كما تحدد صلته بالكون والحياة ، فإذا توهَّم أنه قادر على أن ينفذ من هذه المجالات إلى ماوراءها ، أو أن يتحرك فى نفسه وفى الكون كما تريد أهواؤه ، اصطدم بهذه النواميس الكونية التى تُلزمه حدوده وإلا كان من الهالكين .

إن الإنسان مجاله أن يعرف الله – سبحانه – بصفاته ، وبآياته ، لابذاته ، وهل يحيط المحدود بغير المحدود ؟

ولكن فى « الطبيعة » الإنسانية نزوعًا إلى اقتحام الغيب المحجوب ، ألَمْ تتحركْ هذه الطبيعة فى نفس موسى حين ذهب لميقات ربه وكلَّمه الله ، فقال الله تعالى على لسانه :

---

(١) كتاب نهج البلاغة .

(رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ)[1] . (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ)[2] .

ولقد سئلت عائشةُ ، رضى الله عنها :

« هل رأى محمد ﷺ ربَّه » ؟

فقالت للسائل : لقد قَفَّ شعرى مما قلت ، مَنْ حَدثَكَ أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد كذب ثم قرأت :

(لاَ تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)[3] .

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) .

ولكنه رأى جبريل – عليه السلام – فى صورته مرتين » ..

ورؤية جبريل على صورته التى تشير إليها عائشة – رضى الله عنها – كانت أولاهما عند بدء الوحى ، والأخرى ليلة المعراج .

هذا وإن من طبيعة الملائكة قدرتها على التشكّل بحيث يراها الناس . ومن ذلك ماذكره عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فيما رواه عنه ابنه عبد الله – وقد ورد ذلك فى فصل سابق – إذ ظهر جبريل فى هيئة رجل شديد بياض الثياب ،

---

(١) الآية ١٤٣ سورة الأعراف .

(٢) الآية ٥١ سورة الشورى .

(٣) الآية ١٠٣ سورة الأنعام .

شديد سواد الشعر ، لا يُرَى عليه أثر السفر ، ولايعرفه منهم أحد . حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفَّيه على فخذيه ، وجرى بينهما حوار عن الإسلام والإيمان والإحسان .

فلما انصرف قال الرسول ﷺ لأصحابه : إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم !

* * *

ونعود إلى مافى النفس البشرية من دوافع فطرية تجعل الإنسان يتجه إلى الله ، حتى بين الذين ينكرون وجود الله ويُلْحِدُون[1] فى آياته ، وهى دوافع كامنة تثيرها الحالات التى يتعرض لها الإنسان فى حياته ، كالخوف والمرض ونقص الأنفس والأموال والثمرات ، وغلبة العدو وظلم القوى ومواجهة الشدائد والمحن . هنالك تستيقظ مشاعر العبودية فتدفع بالإنسان إلى حمى الله يلوذ به ويلتمس عنده العون والحماية والرحمة . وهنالك يرى الإنسان ربَّه تبارك وتعالى متجليًا عليه بعونه وحمايته ورحمته .

يقول الرسول ﷺ :

« احفظِ اللهَ يَحفظْك ، احفظ الله تجدْه تُجَاهَك » . .

ويقول الله تعالى مذكرًا بهذه الحقيقة التى يؤمن بها الناس جميعًا وهم فى حالة الفزع ، فإذا ماأصابهم الأمن كان منهم الشَّكور ومنهم الكَفور :

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)[2] .

---

(١) يشكون ويطعنون .

(٢) الآية ٣٣ سورة الروم .

(وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ [1] دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ [2] ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ [3] خَتَّارٍ كَفُورٍ) [4] .

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ، أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ) [5] .

وإن الإنسان حين يرتقى ويسيطر على واقعه المادى الذى يشده إلى الأرض ويستعبده بالشهوات ، تصفو نفسه وتتفتح بصيرته على آفاق جديدة فى الفكر والحياة وفى معرفة الله ، ويكتسب طاقات جديدة تعطيه القدرة على تسخير قواه والتأثير فيما حوله لاعهد له به من قبل .

يقول الحديث القدسى : « مَازَال عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافل حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطِشُ بِهَا » .

إنه يصل إلى حالة الاتصال بالله سبحانه ، مَصْدَرِ القوة والضياء ، فيتلقى عنه ويستمد منه على قدر استعداد طاقاته للتلقى والاستقبال ، وحسبنا أن نشير هنا –

---

(١) جمع ظلة ، وهى ما يظل كالسحابة أو الجبل .

(٢) سالك القصد ، أى طريق الحق .

(٣) غدار مخادع .

(٤) الآية ٣٢ سورة لقمان .

(٥) الآية ٦٢ سورة النمل .

ولله المَثَلُ الأعلى – إلى قوانين استقبال الكهرباء ذات الضغوط المختلفة ، وما الإنسان إلا جزءٌ من الطبيعة إن صح هذا المثال .

إن رؤية الله – سبحانه وتعالى – تكون بمعنى مراقبته فى كل فكر أو عمل ، وهو ما يشير إليه قول الرسول ﷺ :

« أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِن لَّمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » .

وهو ماعبر عنه الإمام على – رضى الله عنه – حين قال :

« أَوَ أَعْبُدُ مَالاَ أَرَى » ؟ .

* * *

وإذا كانت قمة الإيمان بالغيب ، وهى الإيمان بالله .. خالقًا ومدبرًا وحكيمًا .. إلى آخر أسمائه وصفاته الحسنى ، فقد اعتبر القرآن الكريم هذه المرتبة أعلى مراتب الإنسانية المؤمنة وجعل الجزاء عليها أعلى مراتب الجزاء .

قال تعالى :

(إِنَّمـا تُنْذِرُ منِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بالغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كريم)(١) .

(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْن رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِير)(٢) .

(وأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ . هَذَا مَاتُوعَدُون لِكُلِّ

(١) الآية ١١ سورة يس .

(٢) الآية ١٢ سورة الملك .

أَوَّاب [1] حَفِيظ . مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيب . ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ . لَهُمْ مَايَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) [2] .

هذا جزاء الإيمان بالغيب فى الحياة الآخرة . وقد بدأنا بالإشارة إليه على غير الترتيب الزمنى الذى يجعل الجزاء فى الحياة الدنيا أسبق منه ، لأن ذلك يدخل فى نطاق الإيمان بالعيب عقيدة وجزاء .

فما هى ثمرات الإيمان بالغيب فى هذه الحياة الدنيا ، وماهو جزاؤه المقدور ؟ .

إن للإيمان بالغيب فى هذه الحياة الدنيا ثمرات عاجلة ، أولُها فيما يختص بالإيمان بالله تلك الطمأنينة التى يحسها المؤمن وهو يواجه الحياة بما فيها من قُوى الطبيعة الغلابة وسطوة ذوى القوة والجاه . فهو من إيمانه فى حصن حصين ، وهو حين يهتف فى صلاته عشرات المرات كل يوم : الله أكبر ، تتضاءل فى وجدانه كل صور القوة والجاه والسلطان التى يستعلى بها أى مخلوق ويستطيل .

وهو حين يتعرض لنازلة تصيبه بنقص فى الأموال والأنفس والثمرات ، لايصيبه الجزع ولاتتمزق نفسه غمًّا وحسرة ، ولكنه يستقبل ذلك فى سكينة المؤمن بقضاء الله وقدره ، ومايزال إيمانه بالله يمده برصيد موفور من الصبر والمصابرة حتى يجتاز المحنة ويستعيض مافقد أو خيرًا منه . وخيرٌ مما فقد أنه يصبح خلقًا آخر بعد أن يكون قد صهرته المحنة وزكَتْ روحه بالابتلاء .

وتثمر عقيدة الإيمان بالغيب ثمرات أخرى .

---

(١) كثير الرجوع إلى الله .

(٢) الآيات من ٣١ إلى ٣٥ سورة ق .

إنها تثمر فى نفس المؤمن « الوعى الكونى » الذى يوثق الصلة بينه وبين الكائنات ويشعره التعاطف والألفة مع الوجود ، فيحس أنه جزء من كل ، يجمعه قانون الجاذبية والتكامل والخلود .

وتثمر هذه العقيدة ثمرتها المقدورة فى نفس المؤمن حين يضع أمام بصيرته مافى الحياة الآخرة من جنة ونار وثواب وعقاب ، فلا يغفو ضميره عن الحق فى علاقته بربه وعلاقته بالناس .

وتثمر هذه العقيدة حين تغلو فى نفسه قيمة هذه الحياة الدنيا ، وقيمته فى هذه الحياة ، لأنه يعلم أنه يُخلق عبثًا وأنه لن يترك سدى ، وأن الدنيا مزرعة الآخرة ، فهو مطالب بأن يسعى ويعمل وينتج لخير نفسه وخير المجتمع .

وتثمر هذه العقيدة حين يؤمن بأنه فى هذه الحياة الدنيا عابر سبيل ، وأن أمامه حياة أخرى هى مرحلة من مراحل حياته التى بدأت وهو جنين فى بطن أمه ، فلا يلهيه يومه عن غده ، ولا ينغمس فى اللذائذ والشهوات التى تفسد كيان الفرد وتصيب المجتمع بالانحلال ، ولكنه يستعلى على هذه اللذائذ والشهوات ولا يأخذ منها إلا بمقدار ، منطلقًا إلى ماهو أكرم وأجدر بكرامة الإنسان ، تشده المعانى الكبيرة لوجوده ، فهو يجاهد فى سبيل القيم العالية بكل مايضىء تاريخ الإنسانية من معانى الإيثار والبطولة والتضحية والفداء .

ثمراتٌ كثيرة تؤتيها عقيدة الإيمان بالغيب فى هذه الحياة الدنيا – قبل الحياة الآخرة – إذا مااستقرت هذه العقيدة فى نفس الإنسان مستلهمًا إياها مما جاءت به رسالات السماء ، وماأيده العقل ، وكشف عنه العلم فى فتوحاته التى تقطع السبيل على كل إنكار أو مماراة ..

٦

دعامة المؤمن عقله

تقدير العقل والإشادة به ، من القيم الدينية التى تقوم عليها العقيدة السليمة .

يقول رسول الله ﷺ :

« لكل شيء دعامة ، ودعامة المؤمن عقله ، فبقدر عقله تكون عبادته » .

وهذا الحديث النبوى يبين ماللعقل من أهمية فى حياة المؤمن وعبادته ، فهو يقول إن لكل شيء دعامة يقوم عليها كيانه ، وأساسًا يستند عليه بناؤه . ودعامة المؤمن التى يقوم عليها كيانه وينبنى عليها إيمانه هى العقل . وليس هناك تصور لمكان العقل وارتباطه الوثيق بالإيمان والعبادة أبلغ مما يصوره هذا الحديث النبوى الشريف .

ولهذا كان القرآن الكريم يتجه دائمًا إلى العقل فى الدعوة إلى الله ، وفى إقامة الحجة على المنكرين والضالين . وفى التفريق بين الحق والباطل ، وبين الخطأ

والصواب يقول الله عز وجل :

(كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[1] .

وَيقول تَعَالَى : (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَابِ)[2] .

ولذلك حث الله على التفكير والنظر فى ملكوت السموات والأرض وأطلق العقل إلى أبعد الآفاق ليؤدى ماخلق له فى كشف حقائق الكون وأسرار الوجود . فقال عز وجل :

(إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَاف اللَّيْل وَالنَّهَارِ وَالفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّة ، وَتَصْرِيف الرِّيَاح والسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ ، لآيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[3] .

وقال تعالى : (وَهُوَ الَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَات جَعَلَ فِيهَا زَوجَيْنِ اثْنَيْن ، يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ

---

(١) الآية ٢٨ سوره الروم .

(٢) الآية ٢١ سورة الزمر .

(٣) الآية ١٦٤ سورة البقرة .

صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ واحِد ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فى الْأُكُل ، إِنَّ فى ذَلِكَ لآيات لِقَوْم يَعْقِلُونَ)[1] .

ويقول تعالى فى حق المنكرين الضالين الذين يعطلون عقولهم :

(لَهُمْ قُلُوبٌ لايَفْقَهونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْينٌ لايُبْصِرُون بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لايَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)[2] .

وينعى على هؤلاء جمودهم وتمسكهم بمواريثهم الباطلة ، فيقول سبحانه وتعالى :

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ ، قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لايَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلايَهْتَدُونَ)[3] .

وأثنى الله على المؤمنين الذين يقوم إيمانهم على العقل والاقتناع إذا ذُكِّرا بآيات الله ، وذلك فى قوله تعالى :

(وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وعُمْيَانًا)[4] .

---

(١) الآيتان ٣ و ٤ سورة الرعد .

(٢) الآية ١٧٩ سورة الأعراف .

(٣) الآية ١٧٠ سورة البقرة .

(٤) الآية ٧٣ سورة الفرقان .

وكفل القرآن حرية العقل فى اختيار الطريق الذى يؤدى إليه تفكيره السليم وأعطاه المسئولية الكاملة فى ذلك حيث يقول :

(لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)[١] .

وفى قوله تعالى :

(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)[٢] .

وفى بيان قيمة العقل وارتباطه الوثيق بالإيمان السليم والعبادة الصحيحة ، يقول رسول الله ﷺ : « العقل أصل دينى » ، ويقول : « اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل ، تعرفوا ماأمرتم به ومانهيتم عنه » .

وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : أثنى على رجل عند رسول الله ﷺ بخير ، فقال : كيف عقله ؟ قالوا : يارسول الله إن من عبادته كذا .. إن من فضله كذا .. إن من أدبه كذا . فقال : كيف عقله ؟ قالوا : يارسول الله ، نثنى عليه بالعبادة وتسألنا عن عقله ؟ فقال ﷺ : إن الأحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر . وإنما يقرب الناس من ربهم بالزُّلَفِ[٣] على قدر عقولهم .

وهل تكون العبادة الصحيحة إلا عن عقل ووعى وإدراك ؟ ولهذا قال رسول الله ﷺ : « بقدر عقل المؤمن تكون عبادته » . ذلك لأن العبادة التى تؤدى دون تدبر لحكمتها وفهم لغايتها ، إنما تكون قوالب فارغة من المضمون ، وأشكالا خالية

---

(١) الآية ٢٥٦ سورة البقرة .
(٢) الآية ٢٩ سورة الكهف .
(٣) الدرجة ، المنزلة .

من المعنى ، وهى بذلك لاتحدث أثرها فى النفوس ، ولا ترقى إلى مقام القبول عند الله .

فالصلاة مثلا ليس للإنسان منها إلا ماعقل ، فى خشوعه وهو واقف أمام الله عز وجل ، وفى تدبره لما يقرأ من كلام الله ، وفيما تتركه من أثر فى حياة الإنسان وسلوكه . فإذا خلت الصلاة من ذلك كله ، وأصبحت مجرد حركات يؤديها الإنسان وهو مشغول القلب منصرف الفكر ، عجولا كأنما يحمل حملا يريد أن يلقيه ويستريح منه ، إن أداء الصلاة على هذه الصورة يجردها من معناها وحكمتها وأثرها فى النفوس .

ولقد رأى الرسول ﷺ رجلا يؤدى الصلاة على هذه الصورة أو قريب منها ، فقال له بعد أن فرغ من صلاته : اذهب فصلِّ فإنك لم تصل .

وقال ﷺ : « ... وجُعلت قرة عينى فى الصلاة » ، وكان يقول لبلال حين يدعوه للأذان وإقامة الصلاة : « أرحنا بها يابلال » . ويجدر بنا أن نقف وقفة متأنية عند هذا التعبير .. إن الرسول يقول أرحنا بالصلاة يابلال ، لأن الصلاة راحة للنفس وطمأنينة للقلب ، ولم يقل أرحنا منها يابلال ، كما يقول ويفعل بعض المصلين الذين يؤدون الصلاة بلا عقل ولاتدبر ولاخشوع .

وأنت حين تعقل عبادة الصلاة وتؤديها على وجهها الصحيح ، متمثلا ذلك فى وقوفك بين يدى الله خمس مرات كل يوم ، لابد أن تنطبع نفسك على مراقبة الله فى كل ماتقول وتعمل ، ولهذا قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (١)

وكذلك الأمر فى عبادة الصوم : إنه حرمان يتقرب به الإنسان إلى خالقه ،

---

(١) الآية ٤٥ سورة العنكبوت .

يترك طعامه وشرابه وشهوته امتثالا لأمر الله وابتغاء مرضاته ، ليس عليه رقيب ولا حسيب إلا ضميره . ولهذا جاء فى الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى ، وأنا أجزى به » .

وإذا تدبر الإنسان الحكمة من الصوم عرف أن ترك الطعام والشراب ليس غاية فى ذاته ، وإنما هو وسيلة لتربية الإرادة القوية والخلق المتين ، وإعداد لاحتمال المشقة ومخالفة العادة ، وتعبئة روحية تسمو بالنفس على الأهواء والشهوات .

ولهذا قال الرسول ﷺ : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

فبقدر مايعقل الإنسان من هذه العبادات تكون قيمتها الحقيقية ، وأثرها العملى فى السلوك ، وثوابها الموعود عند الله .

وبالعقل يستطيع الإنسان أن يستنبط أحكام دينه فيما لم يرد به نص من الكتاب أو السنة . وذلك ماجرى عليه الصحابة رضوان الله عليهم وجرى عليه الأئمة والعلماء . ولقد أقر الرسول ﷺ ذلك فقال لابن مسعود ، رضى الله عنه : « اقض بالكتاب والسنة إذا وجدتهما ، فإن لم تجد الحكم فيهما اجتهد رأيك » .

وحين ولى الرسول معاذ بن جبل - رضى الله عنه - القضاء فى اليمن سأله : بم تحكم ؟

قال معاذ : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال أجتهد رأيى .

وقال ﷺ : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » .

والاجتهاد فى الحكم والرأى أساسه العقل السليم . ولهذا وضعت للمجتهد شروط لابد أن تتوافر فيه ليكون أهلا للاجتهاد فى الحكم أو الفتوى . ومن هذه

الشروط أن يكون راشدًا عاقلا ، متصفًا بالأخلاق الكريمة ، عالمًا بالأدلة الشرعية وماتقوم عليه من علوم اللغة والتفسير والحديث ، وفهم أسباب نزول القرآن ، ومقاصد الشريعة . وكلها شروط يكتمل بها العقل وتتسع آفاقه وتصدق أحكامه .

وهكذا نجد أن مراتب الإيمان ترتبط بمستويات العقل ، وبقدر عقل الإنسان يكون إيمانه ، وبقدر إيمانه تكون عبادته ، ويكون أثر هذه العبادة فى نفسه .

٧

العمل فى ميزان الدين

ليس أدل على قيمة العمل فى ميزان الدين ، من أن الآيات التى تتحدث عن الإيمان والمؤمنين تقرن الإيمان دائمًا بالعمل :

(إِنَّ الَّذِين آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْس نُزْلاً)[١] .

(إِنَّ الَّذِينَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أحْسَنَ عَمَلاً)[٢] .

(إِنَّ الَّذِينَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانهم)[٣] .

---

(١) الآية ١٠٧ سورة الكهف .

(٢) الآية ٣٠ سورة الكهف .

(٣) الآية ٩ سورة يونس .

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحات طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآب) [١] .

فالإيمان لابد أن يقترن بالعمل ، لأن العمل ثمرة الإيمان وبرهانه ، وليس الإيمان بالتمنى ، كما يقول الرسول ﷺ : ولكن ماوقر فى القلب وصدقه العمل .

ولقد قال قوم فرطوا فيما يجب عليهم : نحن نحسن الظن بالله فقال عنهم الرسول ﷺ : كذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

ذلك أن العمل غاية إنسانية ، وواجب اجتماعى فى الحياة . وهو فى الوقت نفسه من القيم الدينية التى تصل إلى مستوى العبادة ، لأنه يحقق الحكمة من خلق الإنسان ووجوده فى هذه الحياة .

وإذا كان كل من فى الوجود يعمل ، من أعظم الأجرام السماوية التى لاتتوقف لحظة عن الدوران فى أفلاكها ، إلى النملة التى لا يسمع دبيبها على الأرض ، إلى الذرة التى تقاس بجزء من عشرة ملايين من المليمتر – وهى فى حركة دائبة تؤلف بين أجزائها الثلاثة « الإلكترون والبروتون والنيوترون » – فإن الإنسان لايستطيع أن يخرج على نواميس الكون والحياة فيعيش بلا عمل ، وإلا لفظته الحياة ونبذه المجتمع ، وتحطم كيانه ، وفقد معنى وجوده .

وفى قوله تعالى :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْس إِلاَّ لِيَعْبُدُون) [٢] .

تلتقى العبادة والعمل فى معنى واحد ، لأن الإنسان خلق فى هذه الأرض

---

(١) الآية ٢٩ سورة الرعد .

(٢) الآية ٥٦ سورة الذاريات .

ليعمل ، وقد جعلت الدنيا مزرعة للآخرة . خلق لعمارة الأرض ، ومنحه الله الحواس والمواهب ليستخدمها فى ذلك ، فإن هو لم يفعل فقد عطل حكمة الله فى خلقه ، وعصى أمره ، إذ يقول تعالى :

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) (١) .

ونحن إذا رجعنا إلى الصورة التطبيقية فى حياة الأنبياء والرسل ، وهم الذين يعطون القدوة والمثل ، نجد الدليل الواضح على قيمة العمل فى ميزان الدين . فقد كانت حياتهم كلها عملا وجهاداً ، ليس فى ميدان الفكر والدعوة فحسب ، ولكن فى مجال العمل اليدوى وغيره من الأعمال .

ألم يعمل نوح فى بناء السفينة ، وداود فى صناعة الحديد ، وإبراهيم وإسماعيل فى بناء البيت العتيق ، وكان المهر الذى تزوج به موسى ابنة شعيب أن يعمل أجيراً عنده عشر سنوات ؟ .

وكذلك كان محمد ﷺ يتقدم المسلمين فى بناء مسجد قباء ومسجد المدينة ، ويحمل الأحجار إلى مكان البناء ، فإذا اعترضه أحدهم يريد أن يحمل عنه رده قائلا : اذهب فاحمل غيرها ، فلست أفقر إلى الله منى .

وفى حديث الرسول ﷺ – إلى جانب عمله مايؤكد هذا المعنى . كان يبشر من أمسى كَالاًّ من عمل يده بالمغفرة ، وكان يقول : « لأن يحمل أحدكم فأسه فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو ردوه » وكان يكرم العامل الذى خشنت يده من العمل فيقول : « هذه يد يحبها الله ورسوله » ويوصى بالمحافظة على حقوق الخدم وكرامتهم ، ويصفهم بأنهم إخوة لمخدوميهم ، ويأمر هؤلاء المخدومين بأن يطعموهم مما يأكلون ، ويلبسوهم مما يلبسون وألا يكلفوهم من العمل مالا

---

(١) الآية ١٠٥ سورة التوبة .

يطيقون ، فإن كلفوهم وجب عليهم أن يعينوهم .

وكان أبو بكر قبل خلافته يعمل فى التجارة ، فلما تولى الخلافة خرج إلى السوق كعادته يشترى ويبيع ، حتى قال له المسلمون : نحن نكفيك حتى تفرغ لمهام الخلافة وفرضوا له كفايته من بيت المال .

وكان عمر يقول : لايقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لاتمطر ذهبًا ولافضة .

وكان يطرد المتعطلين العاكفين بالمسجد ويأمرهم بالسعى والعمل . قال مرة لأحدهم . من الذى يعولك ؟ قال : أخى . فقال له عمر أخوك أعبد منك .

وهذا هو على بن أبى طالب يصبح فلا يجد فى بيته طعامًا ، وعنده فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ فلا يذهب إلى أبيها يلتمس الطعام ، ولاإلى بيت من بيوت الأنصار ، ولكنه يخرج إلى ظاهر المدينة يلتمس عملا يقتات منه ، ويحصل على طعامه بعرق جبينه ، فيجد هناك امرأة تريد أن تعمل معجنة من الطين ، فيعرض عليها أن يجلب لها الماء مقابل ثمرة عن كل وعاء يحمله ، حتى إذا فرغ من عمله أعطته أجره من التمر ، فينصرف به إلى المسجد يقص على الرسول ﷺ قصته ، فيتهلل وجه الرسول ويأكل من التمر ، ثم يعود على إلى أهله يحمل لهم الطعام . .

إنها صورة تحمل كثيرًا من المعانى المضيئة فى مجال العمل وإعلاء قيمته . على ابن أبى طالب ابن عم رسول الله ﷺ والفدائى الأول فى الإسلام ، وزوج ابنته فاطمة الزهراء . . لا يستنكف أن يكون أجيرًا عند امرأة يحمل لها الماء ، ليحصل على طعامه بعرق جبينه ، ولكيلا يكون عالة على أحد .

والرسول ﷺ يبارك ذلك العمل ويعلن عن رضاه به فيتهلل وجهه ويأكل من التمر الذى أخذه علىّ أجرًا على عمله . . وأى عمل ؟

قال ﷺ :

« إن الله يحب العبد يتخذ المهنة ليستغنى بها عن الناس » .

« إن الله تعالى يحب المؤمن المحترف » .

« أحل ما أكل العبد ، كسب يد الصانع إذا صنع » .

وقيل لأحمد بن حنبل : ما تقول فيمن جلس فى بيته أو مسجده وقال : لا أعمل شيئا حتى يأتينى رزقى ؟

فقال أحمد : هذا رجل جهل العلم ، أما سمع قول النبى ﷺ : « إن الله جعل رزقى تحت ظل رمحى » ، وقوله حين ذكر الطير : « تغدو خماصًا وتروح بطانًا » ، فذكر أنها تغدو فى طلب الرزق .

وقال ابن مسعود : إنى لأكره أن أرى الرجل فارغًا ، لا فى أمر دنياه ولا فى أمر آخرته .

وفى ذم البطالة أيضًا وما تؤدى إليه من الفقر وذل السؤال يقول الرسول ﷺ :

« من فتح على نفسه بابًا من السؤال فتح الله عليه سبعين بابًا من الفقر » .

وقال معاذ بن جبل : ينادى مناد يوم القيامة : أين بغضاء الله فى أرضه ؟ فيقوم سُؤّالُ المساجد .

وقال لقمان لابنه : يابنى ، استغن بالكسب الحلال عن الفقر ، فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال : رقة فى دينه ، وضعف فى عقله ، وذهاب مروءته ، وأعظم من هذه الثلاث : استخفاف الناس به .

* * *

ويقول رسول الله ﷺ :

« إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها ، فليغرسها ، فله بذلك أجر » .

وفى هذا الحديث النبوى الشريف تتمثل قيمة العمل وأهميته فى هذه الحياة ، حتى فى اللحظات الأخيرة التى يودع فيها الإنسان وتودع الدنيا كلها الحياة .

ولو قال الرسول ﷺ : إن واجب الإنسان حين يرى القيامة قد أقبلت بأهوالها وهو فى هذا الموقف ، هو أن ينفض يده من شئون الدنيا ، وأن يسارع فى اللحظات الباقية إلى الاستغفار والتوبة والإقبال على الله ، لكان هذا القول متفقًا مع طبيعة الإنسان وطبيعة الموقف . ولكن الرسول ﷺ قال : إن كانت بيد أحدكم فسيلة وقد قامت القيامة ، فاستطاع أن يغرسها قبل أن تدهمه القيامة فليفعل .

نعم ، فسيلة النخل التى لا تثمر إلا بعد سنوات ، يحث الرسول ﷺ على غرسها حتى ولو لم يبق على هول القيامة إلا لحظات ، لأن الإنسان مطالب بأن يعمل ولا يتوقف عن العمل مادام قادرًا عليه حتى نهاية حياته . كما أن الإنسان مطالب بأن يعمل مهما أبطأت ثمرة العمل ، ومهما فاته إدراك جزاء عمله فى هذه الحياة ، لا أن يقتصر الإنسان على ما يجنى ثمرته العاجلة ، أو ما يعود عليه وحده بالخير ، وإلا ما استقام أمر الدنيا ولا توارثت الإنسانية الحياة جيلا بعد جيل ، ولا ضحى الآباء فى سبيل الأبناء ، أو بذل الأفراد جهودهم فى خدمة المجتمع ، ولما جنى اللاحقون ثمرات عمل السابقين ، ولا عمل هؤلاء اللاحقون بدورهم ليجنى من يأتى بعدهم ثمرات أعمالهم . . .

وهكذا يجعل الإسلام حياة الإنسان على هذه الأرض موصولة الأسباب بالعمل الدائم المتجدد ، العمل الذى لا ينقطع حتى ولو تقطعت أسباب الحياة ، لأن هذه الحياة الدنيا موصولة بحياة أخرى لا ينقطع فيها الثواب ، ولهذا قيل إن

الدنيا مزرعة للآخرة ، وأن ما يفعله الإنسان هنا لابد أن يلقى جزاءه هناك . إن « الفسيلة » لابد أن تثمر ولو غرسها الإنسان فى آخر لحظات الحياة ، ولو كان على أبواب القيامة .

وهذا المعنى ينبع من صميم الإيمان بالله واليوم الآخر . فليست حياة الإنسان على هذه الأرض إلا مرحلة من مراحل حياته التى تبدأ وهو جنين فى بطن أمه ، والتى لا تنتهى بوفاته إلا لتبدأ مرحلة أخرى فى عالم الجزاء والخلود .

ولقد ضل قوم قالوا :

(إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)[1] .

فأبطلوا بذلك قانون الثواب والعقاب ، وأهدروا قيمة الإنسان فى هذه الحياة ، إذ جعلوه كالحشرة الملتصقة بالطين ينتهى أمرها حين تدوسها الأقدام .

ولو كان الإنسان كذلك لتجرد من كل معانى الخير والإيثار ، وحوافز العمل والتضحية ، والتسامى على الأهواء والشهوات ، ولانحصرت آماله ومشاعره فى أضيق الحدود ، فهو يحاول أن ينتهب اللذات ، وأن يستأثر لنفسه بكل ما تصل إليه يده بحق أو بغير حق ، ولانقلب المجتمع إلى صورة بشعة من الأنانية والجشع والتمزق والانهيار .

وإنما تصلح حياة الإنسان وتقوى روابط الإنسانية حين يؤمن الإنسان أن الحياة فى هذه الدنيا فترة عابرة ، وأنه من أجل ذلك ينبغى ألا ينفق عمره إلا فيما يفيد نفسه ويفيد المجتمع ، وأنه سيلقى جزاء عمله فى الحياة الآخرة .

بهذا الإيمان والسلوك تطيب نفس الإنسان ويستقيم قصده فى هذه الحياة الدنيا ، وينال الجزاء الأوفى فى الحياة الآخرة . يقول الله تعالى :

---

(١) الآية ٢٩ سورة الأنعام .

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)[1] .

ولو أن الإنسان تدبر المعنى الذى تضمنه الحديث الخاص بالفسيلة وغرسها على أبواب القيامة ، وحاول تطبيق هذا المعنى فى حياته ، لطالعتنا صور كثيرة من صور التغيير فى سلوك كثير من الناس .

ونضرب لذلك مثلا . . هذا الموظف الذى بقى على اعتزاله الخدمة عام أو بعض عام ، فنراه قد فترت همته وفقد حماسه للعمل ، وأصبح غير حريص على أداء الواجب أو التفكير فى مشروع جديد يفيد العمل ويرفع من مستوى الأداء والإنتاج ، تاركًا ذلك فى رأيه إلى من يشغل وظيفته من بعده . ولو تدبر هذا الموظف المعنى العميق الذى تضمنه حديث الرسول ﷺ لظل يعمل وينتج إلى آخر لحظة فى حياته الوظيفية .

وهناك حقيقة أخرى تتوارد على الخاطر بهذه المناسبة .. إن هذا الشعور السلبى للموظف أو العامل الذى تفتر همته ويخبو حماسه للعمل قرب اعتزاله الخدمة ، وينعكس على حياته بصورة ضارة ، فما إن يترك العمل حتى يجد نفسه فى عزلة عن الحياة ، لا يشده إليها جهد ولا هدف ، وبذلك تثقل عليه أيامه وتطول لياليه ، ويقضى بقية حياته تحت وطأة العلة والفراغ .

---

(١) الآيات ٣٠ و ٣١ و ٣٢ سورة فصلت .

فلو أن مثل هذا الموظف أو العامل أدى عمله إلى آخر لحظة بروح متفتحة وهمة متجددة وأمل فى المستقبل غير محدود ، لترك الوظيفة موفور الطاقة قادرًا على استئناف الجهد فى ميادين أخرى يفيد بها نفسه ومجتمعه الصغير والكبير .

* * *

وفى هذا الحديث الشريف توجيه إلى معنى آخر ، هو الربط بين الدنيا والآخرة فى الفكر والعمل ، فلا انفصالية فى مفهوم العمل للدنيا والعمل للآخرة ، وإنما هو طريق واحد أوله هنا وآخره هناك . يقول الله تبارك وتعالى :

(وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا)[1] .

ويقول جل شأنه :

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[2] .

وهذا المعنى هو الذى يجعل الإنسان متصلا بالله فى كل ما يعمل ، يبنى للدنيا وهو يبتغى الآخرة ، يجاهد فى سبيل الله ليعلى كلمة الحق ، ويحمى حوزة الوطن ، ويصون عرضه وماله ، وقد يبذل فى ذلك روحه لأن وراء هذه الدنيا حياة أخرى يطيب فيها الجزاء والبقاء .

---

(١) الآية ٧٧ سورة القصص .

(٢) الآية ٣٢ سورة الأعراف .

٨

حقيقة الزهد

الإنسان فى هذه الحياة لا تقف مطالبه وتطلعاته عند حد ، فإذا تحقق له مطلب نظر إلى ما بعده ، وإذا وصل إلى مستوى تطلع إلى ما فوقه .

وهناك من الأمور ما يحمد معه الطموح والاستزادة ، مثل طلب العلم وزيادة الإنتاج ، وما يعود على الفرد والمجتمع بالخير.

ومن الأمور ما يكون التجاوز فيه عن الحد ، إسرافًا وترفًا يصيب الفرد والمجتمع بالمفاسد والشرور ، ويؤدى إلى الانحلال والدمار . مثل إسراف الفرد فى المأكل والمشرب وما يؤدى إليه ذلك من العلل والأمراض ، وإسرافه فى ألوان الترف والزينة وما يؤدى إليه ذلك من ضعف وانحلال ، وشراهته فى جمع المال وحيازة الأرض وما يؤدى إليه ذلك من احتكار واستغلال . ثم تكون عاقبة ذلك كلها أن يعود الإنسان أسيرًا ، تستعبده شهوة الطعام والشراب والمال .

فكيف يستطيع الإنسان أن يعصم نفسه من الوقوع فى هذا الأسر ، وأن يجنب نفسه العبودية وقد خلق ليكون سيداً لا عبداً للحياة ؟

هل يكون ذلك بما ذهب إليه البعض باسم الزهد وهو من القيم الدينية ، من الانصراف عن الحياة والإعراض عما فيها من متاع ، وتعطيل أسباب السعى والعمل ، وعدم المشاركة فى بناء المجتمع ، والانطواء والسلبية فى معترك الحياة ؟

إن الأصل فى الزهد ، أن تزهد فيما تملك ، فإن لم تكن تملك شيئاً ففى أى شيء تكون الزهادة ؟ . .

فالزهد عملية إيجابية فيها ممارسة ومجاهدة . وقبل أن تبدأ هذه العملية لابد من أن يستكمل الإنسان مقومات حياته بالعمل والكسب والقدرة على الاستمتاع بمباهج الحياة . فإذا تم له استكمال هذه المقومات وملك أسبابها تبدأ بعد ذلك مرحلة الزهد إن أراد .

أما أن يعيش منطوياً على نفسه ، بعيداً عن معترك الحياة ، وقد خلت يده من المال والمتاع ، ولا صلة له بزوجة أو ولد ، ثم يدعى أنه زاهد فى الدنيا ، فذلك وهم وادعاء . إنه لم يزهد فى الدنيا فما كانت الدنيا فى يده حتى يزهد فيها . ولكن الدنيا هى التى زهدت فيه ولفظته ، حين عزل نفسه عن نواميس الكون والحياة .

لماذا خلق الله الإنسان واستخلفه فى الأرض ؟

هل خلقه ليعمل ويستمتع بثمرات عمله ، أم ليعطى الدنيا ظهره وينفض يده من أسبابها ويحرم نفسه مما خلق فيها من متاع ، ثم يهرب إلى « خلوة » فى مسجد أو صومعة على رأس جبل ، وقد انقطع ما بينه وبين الحياة والأحياء ، وهو يتوهم أنه يهرب بنفسه من مفاتن الدنيا وموبقات[1] الحياة ، ليظفر بالثواب العظيم فى جنات

---

(١) الأمور التى تسبب الهلاك .

النعيم . . ومتى كان الهروب من الحياة سبيلا إلى الجنة ، ولا سبيل اليها إلا بالعمل وخوض معترك الحياة ومجاهدة النفس والابتلاء .

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ؟) (1) .

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ (2) نَبْتَلِيهِ . . .) (3) .

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) (4) .

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) (5) .

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) (6) .

---

(1) الآية ١١٥ سورة المؤمنون .

(2) العناصر المختلفة التى تتكون منها النطفة .

(3) الآية ٢ سورة الإنسان .

(4) الآية ٧ سورة الكهف .

(5) الآية ٣١ سورة محمد .

(6) الآية ٥٥ سورة النور .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (١) .

هذا هو وضع الإنسان فى الدنيا ، وهذا هو السبيل إلى الجنة .

ولقد أباح الله للإنسان أن يستمتع بالحياة الطيبة ، وحثه على ألا ينسى نصيبه من الدنيا وهو يتجه بعمله إلى الآخرة .

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) (٢) .

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) (٣) .

جاء رجل إلى على بن أبى طالب يشكو إليه أخاه ، فقد لبس غليظ الثياب وتخلى عن الدنيا . فدعاه ، فلما حضر قال له :

ياعدو نفسه ، لقد استهام بك الخبيث (٤) ، أما رحمت أهلك وولدك . أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها . . أنت أهون على الله من ذلك !

والإمام على بن أبى طالب له مواقفه الكثيرة التى يحذر فيها من عواقب الانغماس فى شهوات الحياة ، والاستجابة للمغريات الدنيوية ، ومع ذلك أنكر

---

(١) الآية ٩٧ سورة النحل .

(٢) الآية ٧٧ سورة القصص .

(٣) الآية ٣٢ سورة الأعراف .

(٤) استهواك الباطل وغرر بك الشيطان .

على هذا الرجل تخليه عن الدنيا وعزوفه[1] عن طيبات الحياة ، لأنه إنما يذم من الدنيا فتنتها التى تورد الناس موارد التلف والهلاك ، وتستعبد الإنسان بالشهوات فيسرف على نفسه وعلى المجتمع .

متى ينشأ الزهد إذن ؟ وكيف يكون ؟

ينشأ الزهد مع امتلاك أسباب الحياة ، ليظل الإنسان مالكًا حريته ، محققًا التوازن النفسى والعملى فى حياته ، فلا يغلبه هواه ، ولا تستبد به دنياه .

وهذا الزهد يحتاج إلى مجاهدة للنفس ، فليس باليسير أن يزهد الإنسان فيما يملك ، لأن النفس البشرية جبلت على الأثرة وحب الحياة بما فيها من متاع .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدنْيا واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ[2])[3] .

هى إذن الطبيعة البشرية التى لا جدال فيها ، ولكن للطبيعة البشرية أيضًا ميزانها الذى يعصمها من أن تزل أو تنحرف أو تجور . هذا الميزان هو الذى يجعل الإنسان سيدًا لا عبدًا للحياة .

وذلك بأن يعرف الإنسان حدوده فيما يأخذ وما يدع ، وأن يكون قادرًا على أن يكبح جماح شهواته ، وأن يروض نفسه على الشدة وهو يعيش فى رخاء ، وعلى

---

(١) زهده .

(٢) العودة والمصير .

(٣) الآية ١٤ سورة آل عمران .

الحرمان وهو يملك ما يشاء . وبذلك يملك زمام نفسه ويدرك معنى الزهد عن قدرة ووجدان . ولدينا المثل الرائع الذى استوفى جوانب هذه الصورة فى حياة عمر بن عبد العزيز .

كان عمر فى نشأته الأولى فتى مدللا مترفًا منسرفًا فى الأخذ بكل ما فى الحياة من متاع . كان يتطيب بنوع من العطر له عبير خاص يعرف به ، حتى إنه ليكون قادمًا من بعيد لا يراه أحد ، فتحمل الريح هذا العبير فيقول الناس : هذا عمر ابن عبد العزيز .

ثم تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، فاجتمعت له من أسباب الجاه وامتلاك ناصية الدنيا وما فى الحياة من متاع ما لم يجتمع لغيره . وكان الاتجاه الطبيعى للشاب الأموى المترف حين يستكمل فى يديه كل هذه الأسباب أن يزداد إقبالا على الدنيا واستمتاعًا بالحياة .

ولكن ما حدث كان على نقيض ما يؤدى إليه هذا الاتجاه . كان انقلابًا فى كل شيء ، وكأنما تبدل عمر بن عبد العزيز خلقًا آخر ليس بينه وبين ماضيه أى صلة على الإطلاق .

كان أول ما فعله أن جرد بنى أمية مما اعتبره حقًّا مغتصبًا من الشعب ، ورد هذا الحق إلى بيت المال أو إلى أصحابه . وبدأ بنفسه وبزوجته فاطمة بنت الخليفة عبد الملك بن مروان .

وكان دخله قبل أن يتولى الخلافة أربعين ألف دينار ، فتركه لبيت المال ولم يستبق لنفسه ولأهله إلا ثلثمائة درهم .

كان قبل الخلافة يؤتى له بالقميص من الحرير الرقيق البالغ النعومة والرقة ، فيقول : ما أحسنه لولا خشونة فيه ، فلما تولى الخلافة كان يلبس القميص الغليظ المرقع ويقول : ما أحسنه لولا لينه !

كان قبل الخلافة مفتونًا بجارية[1] من جوارى زوجته ، وكثيرًا ما طلب منها أن تهب له هذه الجارية فكانت تأبى عليه ذلك . فلما تولى الخلافة وهبته زوجته هذه الجارية ، وأدخلتها عليه مجلوة فى أتم زينة وأطيب عبير . لقد حققت له أمنيته الغالية . . فلما اختلى العاشقان وسنحت له الفرصة المشتهاة . . حدثت المفاجأة التى لم تكن تخطر على بال .

إن عمر العاشق يعرض عن جاريته الحسناء ، وكلما حاولت الجارية أن تقترب منه ازداد إعراضًا عنها ونفورًا . وتعجبت الجارية من أمره فتقول له :

ياسيدى ، فأين ماكان يظهر لى من محبتك إياى ؟

فيقول : والله إن محبتك لباقية ، ولكن لا حاجة لى فى النساء ، فقد جاءنى أمر شغلنى عنك وعن غيرك .

ثم سألها عن أصلها ، ومن أين جلبوها[2] ، وأمر بردها مكرمة إلى أهلها فى بلاد المغرب .

وقد كان فى وسع عمر بن عبد العزيز أن يتزوج هذه الجارية التى عشقها قلبه وتمنتها نفسه ، وأن يستمتع بطيبات الحياة فى غير إسراف ، وأن يأخذ من زينتها فى قصد واعتدال ، ثم لا يجد فى نفسه حرجًا ولا ينال ذلك شيئًا من صفات الحاكم التقى الورع ، ولكنه عدل حتى عن هذا النهج المشروع ، وفرض على نفسه وعلى أهله طريقًا كله شدة وعناء ، وألزم نفسه ما لا يلزم من التجرد والزهد فى الحياة .

ومع هذا كله فإن عمر بن عبد العزيز لم يفرض على رجال دولته وعلى الناس هذا الأسلوب الذى أخذ به نفسه وأهله ، فقد كان يعطى عماله رواتب مجزية ،

---

(١) كان لنظام الرق بقية ، وقد عمل الإسلام على تصفية هذا النظام .

(٢) أحضروها .

وكان المجتمع فى عهده ينعم بمستوى عال من الكفاية والعدل والرخاء ، حتى إن يحيى بن سعد وقد بعثه عمر بن عبد العزيز لتحصيل الزكاة من شمال إفريقية ، فلما جمعها طلب الفقراء ليوزعها عليهم فلم يجد فقيرًا ولم يجد من يأخذها منه ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس !

ويفسر شخصية عمر بن عبد العزيز وفلسفته فى الزهد قوله : إن لى نفسًا تَوَّاقَة ، لم تنل شيئًا قط إلا تاقت لما هو فوقه ، وقد نلت غاية الدنيا فنفسى تتوق إلى الآخرة !

إن الزهد عنده ليس مصدره الضعف أو العجز أو جفاف ينابيع الحياة فى نفسه وفى واقعه ، ولكن مصدره القدرة والامتلاء ، ثم الطموح إلى ما هو أفضل والتطلع إلى ما هو أسمى .

وهذا هو الزهد فى صورته المتكاملة . وهو « موقف » قبل أن يكون حالة . . . فرب زاهد أو متزهد انصرف إلى الزهد عن عجز أو فقر أو سبب من أسباب العدم ، فإذا وجد ما فقد ، أو لوحت له الحياة بمفاتنها أقبل عليها إقبال الظامئ على عذب الشراب . فهل يوصف مثل هذا بالزهد أو يحسب فى عداد الزاهدين ؟ .

إنما الزاهد هو الذى يملك أولا ثم يزهد فيما يملك إن أراد . إنه يتخذ « موقفًا » من الحياة يسترد فيه حريته ، فلا يدع الحياة تستعبده وتدفعه إلى الإسراف على نفسه وعلى المجتمع ، وبذلك يسيطر على نفسه ويملك قيادها ، ومتى استطاع أن يسيطر على نفسه استطاع أن يسيطر على الحياة .

وليس من الضرورى أن يكون الزهد – حتى على هذه الصورة – تحررًا مطلقًا من أسباب الحياة . ولندع زهد عمر بن عبد العزيز فهو مثل فريد لا يطيقه إلا القلة النادرة من الناس ، ولننظر فى الزهد الذى يمكن أن يطيقه من يريد أن يأخذ بأسبابه ، نجد أنه الحد النفسى والعملى الذى يملك عنده الإنسان حريته ثم يكون

بعد ذلك قادراً على أن يأخذ أو يدع . أن تكون الدنيا فى يده وليست فى قلبه ، أن يكون سيداً لا عبداً للحياة ، وألا تستولى الأنانية على نفسه ، بل يذكر حق المجتمع عليه ، فيعطى أكثر مما يأخذ ، ويبسط يده وقلبه بالبذل والعطاء .

٩

اعقلها وتوكل . . .

ومن القيم الدينية التي يلتبس أمرها على بعض الناس ، قيمة التوكل على الله ، فما معنى التوكل ، وما حقيقته ، وما أثره في الفرد والمجتمع ؟

إن الإنسان في هذه الحياة له قدرات محدودة ، تحيط بها قدرة الله التي لا تحد ، ومن هذه القدرة الإلهية يستمد الإنسان القوة والعون في الحياة . وارتباط الإنسان بهذه الحقيقة هو أساس التوكل على الله .

حين يهم الإنسان بأمر من الأمور ، فيعد عدته ، ويستكمل أسبابه ، فما عليه بعد ذلك إلا أن يتوكل على الله في بلوغ هدفه ، وأن يفوض أمره إلى الله في تحقيق غايته يقول الله تعالى :

(فإذا عَزَمْتَ فتوَكّلْ عَلى اللهِ)[1]

---

(١) الآية ١٥٩ سورة آل عمران .

فالعزم أولا ، ثم التوكل ثانياً . عليك أن تعمل أولا ، ثم تفوض أمرك إلى الله فهو وحده الذى يرعى عملك ويكتب لك التوفيق والنجاح .

وحين تتعرض الأمة للشدائد والمحن ، أو تواجه تآمر قوى الشر والبغى والعدوان ، فإن الإيمان بالله والتوكل عليه يمدها بطاقات لا تنفد من الصبر والصمود ، فلا تجزع ولا تتزعزع ، مؤمنة بنصر الله وتأييده .

(الَّذِين قَال لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاس قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخشَوهُمْ ، فَزَادهُمْ إيمَانًا وقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ اللهِ واللهُ ذو فَضْلٍ عظِيمٍ) (١) .

ولقد ظن قوم أن التوكل لا يستلزم الأخذ بالأسباب . ومن هؤلاء الأعرابى الذى ترك ناقته طليقة خارج المسجد ، فقال له الرسول ﷺ : اعقلها وتوكل !

ومنهم من يقرأ قوله تعالى :

(وما مِنْ دابَّةٍ فِي الْأَرْض إلَّا علَى اللهِ رِزْقُهَا) (٢) .

فيقول : ما لى وللسعى والكد فى طلب الرزق ، وقد كفل الله لى نصيبى منه ، فهو يأتينى به حيث أكون ، ولو لم أنقل قدماً أو أبذل جهداً فى سبيل تحصيله .

ولو تدبر قوله تعالى لعلم أن الله كفل الرزق لكل « دابة » ، أى لكل مخلوق يدب على الأرض ، فهو يسعى فى طلب رزقه ، ويعمل لتحصيل معاشه ،

---

(١) الآيتان ١٧٣ و ١٧٤ سورة آل عمران .

(٢) الآية ٦ سورة هود .

فلا يعود من سعيه إلا وقد أصاب رزقه وجنى ثمرة عمله .

يؤكد هذا المعنى ويوضحه قول الرسول ﷺ :

« لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصًا [1] وتروح بطانًا [2] » .

لم يقل الرسول إن الله يرزق الطير وهى قابعة فى أوكارها ، ولكنها تغادر أوكارها فى الصباح جائعة خاوية ، فتنطلق وهى تضرب بأجنحتها هنا وهناك بحثًا عن ثمار الأشجار وسنابل الحقول وحشرات الأرض والماء . . وما تزال تجمع من هذا وذاك حتى تمتلئ حواصلها ، فتعود إلى أعشاشها وقد أصابت رزقها ورزق أفراخها الصغار .

إنها لم تزرع ولم تحصد ولكنها سعت فى طلب الرزق ، فكان لها رزقها من هذا الزرع والحصاد !

وكذلك الإنسان حين يتوكل على الله حق توكله فى سعيه وكفاحه ، مؤمنًا أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، لا يتكالب على الدنيا ، ولا يذل نفسه فى الطلب ، ولا يسلك الطرق غير المشروعة لقضاء مصالحه .

إذا فعل الإنسان ذلك فتح الله أمامه أبواب الرزق ، ويسر له أسباب الخير ، ورزقه كما يرزق الطير التى لا حول لها ولا قوة ، إلا أجنحة ضعيفة تضرب بها فى الهواء !

ولقد كان التوكل على الله فى حياة الأنبياء والرسل مقترنًا دائمًا بالعمل على تبليغ الرسالة ، والصبر على الأذى ، ومجاهدة الباطل وأهله .

انظر إلى نوح عليه السلام ، وقد كبر على قومه أن يستجيبوا لدعوته ، فهو

---

(١) جائعة فارغة البطن .

(٢) ممتلئة البطن من الشبع .

يواجههم بالتحدى مستمداً قوته من التوكل على الله .

(واتْلُ عليْهِمْ نبأَ نُوحٍ إذْ قَال لِقَوْمِهِ ياقَوْم إنْ كان كَبُر عَلَيْكُمْ مَقَامِى وتَذْكِيرِى بآياتِ اللهِ ، فَعلَى اللهِ توكّلْتُ ، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وشُرَكَاءَكُمْ ، ثُمَّ لَا يكُنْ أمْرُكُمْ عليْكُمْ غُمَّةً[1] ، ثُمَّ اقْضُوا إلَيَّ ولَا تُنْظِرُونِ[2])[3] .

وكانت الرسل تتعرض للأذى فى سبيل الدعوة الإلهية ، فتقابل ذلك بالصبر والتوكل على الله :

(ومالَنَا أَلَّا نَتَوَكَّل علَى اللهِ وقَدْ هَدانَا سُبُلَنَا ، ولَنَصْبِرنَّ على ما آذَيْتُمُونَا ، وعلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّل الْمُتَوَكِّلون)[4] .

وأثنى الله على المؤمنين الذين عرفوا حقيقة التوكل ، فآمنوا وعملوا الصالحات وصبروا وتوكلوا على الله ، فقال سبحانه :

(والَّذِين آمنُوا وعمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ[5] من الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِين فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِين .

---

(١) خافيًا مستوراً .

(٢) عجلوا بما تريدون ولا تمهلونى .

(٣) الآية ٧١ سورة يونس .

(٤) الآية ١٢ سورة إبراهيم .

(٥) لننزلنهم .

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) [1] .

والتوكل على الله بهذا المعنى لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب ، ورسم الخطط وتدبر الأمور

إن الرسول ﷺ عندما هاجر من مكة إلى المدينة ، فرارًا بحياته ودينه من المشركين ، لم يمنعه توكله على الله من أن يختفى فى الغار ثلاثة أيام ، وأن يعد العدة والزاد والراحلة لهذه المغامرة .

ثم كان التوكل على الله من وراء كل عمل ، ومع كل عمل يقوم به الرسول فى السلم أو فى الحرب .

وقيل إن الرسول ﷺ ادخر لعياله قوت سنة !

وكان الرسول يعود سعد بن أبى وقاص فى مرض أشرف فيه على الموت .

فقال له سعد :

يارسول الله ، أوصى بمالى كله ؟

قال : لا .

قال سعد : فالشطر [2] ؟

قال : لا .

قال : فالثلث ؟

قال : الثلث ، والثلث كثير ! إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون [3] الناس فى أيديهم .

---

(١) الآيتان ٥٨ و ٥٩ سورة العنكبوت .

(٢) النصف .

(٣) يستجدون الناس بأكفهم .

فهل ترى هذا الذى قرره الرسول ﷺ ينفى الثقة بالله والتوكل عليه ؟ !

ومن الأخذ بالأسباب حين يمرض الإنسان أن يلتمس لنفسه الدواء . وقد سئل الرسول ﷺ عن الدواء هل يرد من قدر الله شيئًا ، فقال : « هو من قدر الله » .

وقال : « تداووا عباد الله فإن الله خلق الداء والدواء » .

وما كان التداوى يمنع التوكل على الله فى التماس الشفاء ، ولكن ترك التداوى بزعم التوكل على الله فى ذلك ، مخالفة لما أمر الله به إذ يقول :

﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾[1] .

ومخالفة للنواميس الإلهية التى تربط الأسباب بالمسببات .

ذلك هو التوكل على الله ، وهذا مكانه بين القيم الدينية ، وأثره القوى فى بناء الفرد والمجتمع . إنه ليس هروبًا من مواجهة الحياة ، وليس موقفًا سلبيًّا من التكاليف التى يجب أن يؤديها الناس ، ولكنه قوة دافعة للعمل ، وطاقة يسيطر بها الإنسان على ما يواجهه من متاعب الحياة ، لأنها طاقة مستمدة من الإيمان بالله !

(١) الآية ١٩٥ سورة البقرة .

١٠

حرية الفرد وقيود المجتمع

ما هى الحدود التى تقف عندها حرية الفرد فى المجتمع الذى يعيش فيه ؟ وهل هذه الحدود تعتبر قيداً على حرية الإنسان ؟ فمن حقه تحطيم هذا القيد وتجاوز هذه الحدود .

إن الحرية من أهم الحقوق المقررة للإنسان . ولكن الإنسان يعيش فى مجتمع لكل فرد من أفراده هذا الحق ، فلو انطلق كل فرد حرًّا يفعل ما يشاء ، لتعارضت حريات الناس واختل نظام المجتمع ، فلابد إذن من حدود تقف عندها حرية الفرد ، حتى لا تكون حريته عدواناً على حق غيره . وقد يعود إسرافه فى ممارسة هذه الحرية على نفسه بالضرر والهلاك .

ومن هنا كانت القيود التى يضعها المجتمع على حرية أفراده ، ضوابط لتنظيم حياة الناس أفراداً وجماعات ، وضمانات تحول دون تعرضهم لما يفسد عليهم حياتهم

ويعرضهم لكثير من الشرور والأخطار .

ولهذا كان من واجب المجتمع أن يتعاون أفراده على رعاية هذه الحدود ، فلا يسمحون لفرد منهم بأن يتعداها فى نفسه أو فى محيطه ، حماية له ولأنفسهم جميعًا من عاقبة هذا التعدى .

(ومنْ يتعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)[1] .

وقد صور الرسول ﷺ هذا المعنى فى المسئولية المشتركة بين أفراد المجتمع فقال :

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا[2] على سفينة فى البحر ، فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم . فقال الذين فى أعلاها : لا ندعكم تصعدون فتؤذونا . فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ مَنْ فوقنا . فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم[3] نجوا ، ونجوا جميعًا » .

والقيم الدينية فى تحديد علاقة الفرد بالمجتمع ، ووضع القيود التى تنظم الحرية الفردية ، إنما تستهدف مصلحة الفرد والمجتمع فى وقت واحد ، وتأكيد الأساس المشترك والمصير المشترك للفرد والجماعة .

وإذا نظرنا إلى موقف الفرد إزاء تصرفاته التى تعتبر من أخص شئون حياته . ومدى حقه فى ممارسة حريته الشخصية . نجده ليس حرًّا فى أن يمارس حياته على

---

(١) الآية ٢٢٩ سورة البقرة .

(٢) اقتسموا .

(٣) منعوهم .

الأسلوب الذى يريد ، حتى فى مأكله ومشربه ونفقته ، لأنها مقيدة بمصلحته هو أولا ، ثم بمصلحة المجتمع باعتباره فرداً من أفراده ولبنة فى بنائه .

وفى ذلك يقول الله تعالى :

(وَكُلُوا واشْرَبُوا ولَا تُسْرِفُوا)[1] .

لأن الإسراف فى الطعام والشراب مفسدة للصحة ، وقد قيل : المعدة بيت الداء والحمية[2] رأس الدواء .

ولأن الإسراف فى الطعام والشراب يصيب الإنسان بالتخمة ، والمجتمع الذى يصاب فريق منه بالتخمة ، لا يكون ذلك إلا على حساب فريق آخر يصاب بسوء التغذية !

وقد يظن الإنسان أنه حر فى ماله ينفقه كيف يشاء ، وأنه ليس لأحد أن يحاسبه على ذلك أو يمنعه من التصرف فى ماله حسبما يريد .

وهذا ظن خاطئ لا يقره المجتمع . فإن مثل هذا الإنسان الذى لا يحسن التصرف فى ماله فهو ينفقه فى غير وجوهه المشروعة ، يفقد أهليته وتسقط حريته ، ويقرر المجتمع الحجر عليه ووضعه تحت وصاية من يرعى ماله ويصون مصالحه .

فإذا خرج الفرد من دائرة حياته الشخصية إلى علاقاته المباشرة بالمجتمع ، كانت القيود على حريته أوجب وألزم ، رعاية للمصلحة العامة وحماية لحقوق المجتمع .

فالتاجر الذى يحتكر سلعة من السلع ، يخفيها حتى تشتد حاجة الناس إليها فيبيعها بالثمن الباهظ الذى يفرضه . مثل هذا الرجل يقول فيه الرسول ﷺ :

---

(١) الآية ٣١ سورة الأعراف .

(٢) الامتناع عن الأكل لحماية الجسم من المرض .

« من احتكر الطعام أربعين يوماً برئ من الله وبرئ الله منه » . وللحاكم أن يستولى على السلعة التى احتكرها ويعرضها للناس بثمنها المقرر[1] .

وحماية مصالح المجتمع تقتضى تأميم المرافق العامة ، بحيث تكون ملكًا للأمة يعم نفعها الجميع ، ولا تكون ملكًا للفرد يتحكم فى إدارتها وإنتاجها ويستأثر بالنصيب الأكبر من ثمراتها . يقول الرسول ﷺ « الناس شركاء فى ثلاث : النار والكلأ[2] والماء » .

وهذه أمثلة للموارد العامة التى تعتبر قوام حياة الناس ، وهى موارد يجب ألا يستأثر بها أحد ، بل تكون ملكًا للمجتمع كله .

وللدين نظرة فى تقييم المال تحدد وظيفته فى الحياة . ونضع حدودًا ومقاييس لملكيته والتصرف فيه . فهو يحرم اكتناز المال وحبسه ، ويتوعد من يفعل ذلك بأشد العذاب ، لأن وظيفة المال هى أن يكون متحركًا فى خدمة المجتمع لا متجمدًا فى خزائن الأغنياء .

يقول الله تعالى :

(. . . والَّذِين يكْنِزُونَ الذَّهَبَ والْفِضَّةَ ولَا ينْفِقُونَهَا فِي سبيلِ اللّهِ فَبشِّرهُمْ بعذابٍ أليم . يَوْمَ يحْمَى عَلَيْهَا فى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وجُنوبُهُمْ وظُهورُهُمْ ، هَذَا ما كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)[3] .

---

(١) كتاب « الحسبة فى الإسلام » لابن تيمية .

(٢) المراعى العامة .

(٣) الآيتان ٣٤ ، ٣٥ سورة التوبة .

هذه بعض القيود التى يفرضها الدين باسم المجتمع على حرية الأفراد فى الملكية الخاصة ، وفى مجال السلوك الشخصى .

وتضع القيم الدينية قيودًا على حرية الإنسان فيما يجاوز حد العفة والقصد والاعتدال ، لتحرره من عبودية الشهوات ، وتنقذه من السقوط فى مهاوى الرذيلة والانحلال .

فهذا الذى يشرب الخمر أو يتناول المواد المخدرة ، ليهرب من مواجهة الحياة فيقع فى غيبوبة يفقد معها ماله وصحته وكرامته . إنما يخسر نفسه ويخسره المجتمع ، وقد كان جديرًا به أن يكون إنسانًا سليم الجسم والعقل ، قوى الإرادة ، يتمتع بحياة كريمة ويؤدى دوره فى إسعاد نفسه وأسرته والمجتمع الذى يعيش فيه .

وهذه الفتاة التى تخرج عن حد القصد فيما تلبس ، فتكشف عما ينبغى أن تستر من أعضاء جسمها ، مندفعة وراء التقليد الأعمى لكل ما تقذف به المجتمعات المنحلة ، من أساليب الفتنة والإغراء . إنما تثير من حولها النظرات المسمومة والكلمات النابية ، وقد كان جديرًا بها أن تشيع من حولها الحياء والاحترام ، لو أنها كانت قوية الشخصية متمسكة بما يفرضه عليها الدين والخلق ، قادرة على أن تكون فى زيها ومسلكها هى القدوة التى يأخذ عنها الغير ، وليست ألعوبة فى أيدى مصممى الأزياء من تجار الفتنة وحبائل[1] الشيطان .

فلو ترك المجتمع كلاً على هواه حرًّا فيما يفعل ، لعادت هذه الحرية على الفرد والمجتمع بالوبال .

وكذلك تتأكد المسئولية المشتركة بين أفراد المجتمع فى جميع نواحى الحياة .

فهم مسئولون عن إقامة موازين العدل والمساواة بين الناس ، ومحاربة الظلم والاستغلال والفساد .

---

(١) مصايد .

وهنا تحدد القيم الدينية الطريق لحمل هذه المسئولية وأدائها على وجهها الصحيح ، وتحذر من عواقب التراخى أو التواطؤ فى أداء هذه الأمانة .

قال الله تعالى :

(والْعصْر ، إنَّ الْإنْسانَ لَفِي خُسْرٍ ، إلاَّ الَّذِين آمنُوا وعمِلُوا الصَّالِحاتِ وتَواصوْا بِالْحقِّ وتَواصوْا بِالصَّبْرِ)[1] .

ويقول الرسول ﷺ :

« من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

وقال تعالى :

(لُعِنَ الَّذِين كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ علَى لِسانِ داوُدَ وعِيسى ابْنِ مرْيم ، ذَلِكَ بِما عَصَوْا وكَانُوا يعْتَدُون . كَانُوا لَا يتَنَاهَوْنَ عنْ مُنْكَرٍ فَعلُوهُ ، لَبِئْسَ ما كَانُوا يَفْعلُونَ)[2] .

وكان بعض الناس يقرأ قوله تعالى :

(يَــاأَيُّها الّذِين آمنُوا علَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يضُرُّكُمْ منْ ضَلَّ إِذَا اهتَديْتُمْ)[3] .

---

(١) سورة العصر.

(٢) الآيتان ٧٨ ، ٧٩ سورة المائدة .

(٣) الآية ١٠٥ سورة المائدة .

فيتصور أن الإنسان غير مسئول إلا عن خاصة نفسه ، ولا شأن له بانحراف غيره مادام هو ملتزمًا جانب الحق . وقد صحح أبو بكر - رضى الله عنه - مفهوم هذه الآية حين قام يخطب فى الناس فقال :

« ياأيها الناس ، إنكم تقرءون هذه الآية ، وتضعونها على غير موضعها . وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » .

وقال تعالى :

(واتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبنَّ الَّذِين ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)[1] .

ذلك لأن الفتنة أو البلاء حين يحل بمجتمع نتيجة تعطيل الحدود وعدم التزام منهج الله وشيوع المنكرات ، لا يقتصر على المخالفين الذين كانوا سببًا فى وقوع هذا البلاء ، وإنما يعم الصالح والطالح ، والمحسن والمسىء .

روت عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال :

« إذا ظهر السوء فى الأرض ، أنزل الله بأهل الأرض بأسه[2] .

قالت : وفيهم أهل الطاعة ؟

قال : نعم ، ثم يصيرون إلى رحمة الله » .

ذلك لأن من تمام طاعة الله تعالى ، ألا يسكت أهل الطاعة على وقوع المعاصى ، وأن يكون لهم موقف فى مواجهة المنكرات .

ومن القيم الدينية فى مجال المسئولية المشتركة ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بالحكمة والموعظة الحسنة .

---

(١) الآية ٢٥ سورة الأنفال .

(٢) عذابه .

إن كل فرد فى المجتمع مطالب بأن يؤدى واجبه فى هذا المجال ، مستخدماً فى ذلك الأسلوب الذى يناسب كل موقف . وقد نشأ من هذه القيمة الدينية فى تاريخ الإسلام نظام الحسبة ، الذى يعطى أى فرد فى المجتمع حق الإبلاغ عن المخالفة أو الجريمة ولو لم تكن موجهة إليه أو واقعة عليه ، وحق توجيه الاتهام إلى مرتكب هذه المخالفة أو الجريمة ، وبذلك يؤدى واجبه فى درء الخطر عن المجتمع ، والنصيحة لله ولرسوله ولولى الأمر ، بما يحقق السلامة والأمن لهذا المجتمع وأفراده ، لأن المجتمع وحدة متكاملة ، ما يصيب أى فرد فيه يعتبر موجهاً إلى جميع أفراده . .

١١

الرقابة بين القانون والضمير

هل يستطيع الإنسان أن يكون رقيبًا على نفسه أمينًا على حدود الله ، محافظًا على حقوق المجتمع . دون أن يخضع فى ذلك لسطوة القانون وعينه الساهرة ؟

إن تجربة « الصوم » فى شهر رمضان تعطى الإجابة عن هذا السؤال ، الذى يبدو لأول وهلة وكأنه سرحة من سرحات الخيال .

إن الصائم قد يشتد به الجوع أو الظمأ ، وهو وحيد داخل غرفة مغلقة لا يراه فيها أحد ، ولديه ما يشاء من الطعام والشراب الذى يسد به جوعه ويطفئ ظمأه ، فلا تمتد يده إلى شيء من ذلك ، لا خوفًا أو حياء من رقيب ، ولكن خضوعًا لرقابة ضميره عن إرادة حرة واقتناع أكيد .

ولابد لكل مجتمع من قانون ينظم العلاقة بين أفراده ، وينظم العلاقة بين الدولة والمجتمع ، ويضع حدودًا تحقق الأمن والعدل ، وتحول دون العدوان

والظلم والانحراف .

على أن القانون بنصوصه وحدها ، مهما تكن سلامة هذه النصوص وسمو مبادئها ، لا يكفل تحقيقَ هذه الأهداف مالم يصحب ذلك سلامةُ التطبيق من جانب القائمين على تنفيذه ، والشعورُ بحرمة القانون من جانب أفراد الشعب .

هناك أجهزة للرقابة وتنفيذ القانون ، ولكن هذه الأجهزة نفسها لابد لها وهى تقوم على تنفيذ القانون من رقابة الضمير ، وإلا اختل فى يدها الميزانُ وتحوَّل القانون إلى أداة تميل بها الأهواء حيث تشاء .

وكذلك أفراد المجتمع ليسوا دائمًا وفى جميع الحالات تحت أعين أجهزة الرقابة أو فى متناول قبضة القانون . فكم من جرائم تُرتكب وتقيد ضدَّ مجهول ، وكم من مجرم أفلت من يد العدالة لعدم كفاية الأدلة ، ولهذا كانت رقابة الضمير هى السند لسلطان القانون على الناس ، والضمان الأكيد لاتباع أوامره واجتناب نواهيه .

فكيف إذن تنشأ رقابة الضمير ؟

كيف يتخذ الإنسان من ضميره رقيبًا وحسيبًا على تصرفاته ، حضر القانون أو غاب ، كان فى خفيةٍ عن الناس وأجهزة الرقابة أم كان تحت أعين الشهداء ؟

لِنَعُدْ إلى تجربة الصوم نجد عندها الجواب .

إن الصائم يؤمن بأنه يخضع لرقابة عليا لا تخفى عليها خافية ، وهو يستشعر هذه الرقابة فى ضميره ، ويقيم من ضميره رقيبًا على نفسه ، ممتنعًا عن أمور هى قوام حياته ، متخذًا من ذلك عبادة يتقرب بها إلى الله .

هذه الرقابة الإلهية العليا هى مفتاح الموقف كله .

وإن استشعار هذه الرقابة وتَمثُّلها فى الضمير ، ليس وقفًا على شهر رمضان فحسب ، ولكن شهر رمضان يعطى التجربة ويقدم المثل .

فالله سبحانه وتعالى رقيب على الناس فى كل زمان ومكان .

(يعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وما تُخْفِى الصُّدُور)[1] .

(إِنَّهُ يعْلَمُ الْجَهْر وما يخْفَى)[2] .

(وما يخْفَى علَى اللهِ مِنْ شَىءٍ فِى الْأَرْضِ ولَا فِى السَّماءِ)[3] .

(ما يكُونُ مِنْ نَجْوى[4] ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُو رابِعُهُمْ ولَا خَمْسةٍ إِلَّا هُو سادِسُهُمْ ولَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ ولَا أَكْثَر إِلَّا هُو معهُمْ أَيْنَما كَانُوا ثُمّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عمِلُوا يوم الْقِيامةِ إِنَّ الله بِكُلِّ شَىءٍ علِيمٌ)[5] .

والشعور بالرقابة الإلهية وتمثلها فى ضمير الإنسان ، يتصل بالإيمان الفطرى بالثواب والعقاب ، بالحوافز على أداء الخير ، بالزواجر عن فعل الشر ؛ بالعدالة الإلهية المطلقة فى الميزان .

(فأَمَّا منْ ثَقُلَتْ موازِينُهُ . فَهُو فِى عِيشَةٍ رَاضِيةٍ . وأَمَّا منْ خفّتْ موازِينُهُ . فَأُمُّهُ هَاوِيةٌ[6] . وما أَدْراكَ ماهِية . نَارٌ حامِية)[7] .

---

(١) الآية ١٩ سورة غافر .

(٢) الآية ٧ سورة الأعلى .

(٣) الآية ٣٨ سورة إبراهيم .

(٤) حديث السر .

(٥) الآية ٧ سورة المجادلة .

(٦) مأواه جهنم .

(٧) الآيات من ٦ إلى ١١ سورة القارعة .

(إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا)[1] .

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)[2] .

بهذه المعانى يستشعر الإنسان الرقابة الإلهية ويتمثلها فى ضميره ، ثم يقيم من ضميره رقيبًا على نفسه ، فهو يلتزم حدود القانون ويتحرز[3] من التردى فى الإثم أو الانحراف ، فإذا زلّت قدمه كان هو الذى يسلم نفسه للعدالة ويطلب تنفيذ أحكام القانون .

حدث ذلك فى عهد رسول الله ﷺ على صورة تبدو الآن عجيبة أشد العجب ، ولكنها تدل على مبلغ ما يصل إليه الإيمان القوى والضمير الحى بين الناس .

قدِمَت امرأة على الرسول ﷺ تقول له :

يارسول الله ، إنى قد زنيتُ فطهرنى .

فأعرض عنها الرسول ، فانصرفت . ثم عادت إليه فى اليوم التالى تكرر ما قالته بالأمس ، وتُلِحُّ فى طلبها وتقول : والله إنى لَحُبْلَى . . . . وكأنما تريد بذلك أن تقدم للرسول الدليل المادى على الجريمة التى ارتكبتها .

وهنا يقول لها الرسول :

---

(١) الآية ٤٠ سورة النساء .

(٢) الآيتان ٧ ، ٨ سورة الزلزلة .

(٣) يحترس .

أما الآن فاذهبي حتى تلدى .

وغابت المرأة شهوراً حتى ولدت ، ثم جاءت إلى الرسول تحمل وليدها بين يديها .

فقال لها : اذهبي حتى تفطميه .

وغابت المرأة شهوراً أخرى ، فلما فطمته جاءت بالصبي فى يده كسرة خبز فقالت : يانبي الله قد فطمتُه ، وقد أكل الطعام .

عند ذلك دفع الصبي إلى رجل من المسلمين ليرعاه وأقام عليها الحد . ثم صلى عليها وأمر بدفنها . . فقال له خالد بن الوليد : يارسول الله ، أتصلى على امرأة زانية ؟

فغضب الرسول وقال : مهلاً ياخالد .

وأخذ يثنى على موقف هذه المرأة المؤمنة التى تابت توبة لو وزعت على أهل الأرض لوسعتهم .

امرأة ترتكب جريمة لم يشهدها أحد ، فتبادر بنفسها إلى الإبلاغ عن هذه الجريمة وتقول للرسول : طهرنى !

إنها تؤمن بأن الله مطلع على السر وأخفى .

(يعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وما تُخْفِي الصُّدُور)[1] .

وأنها إن استطاعت أن تكتم أمرها عن الناس وتنجو من القصاص فى الدنيا ، فإنها لا تستطيع أن تخفى هذا الأمر عن الله وتهرب من قصاصه فى الآخرة .

---

(١) الآية ١٩ سورة غافر.

(يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [1] .

ولهذا فهى تطلب من الرسول أن يقيم عليها الحد ، وينفذ فيها حكم الله ، لتتطهر من جريمتها وتلقى الله طاهرة نقية ، ليس عليها من أثر المعصية شيء .

ويمهلها الرسول حتّى تلد ، فتمضى عدة أشهر وهى حرة طليقة ، لم توضع داخل سجن ، ولم يُفْرَجْ عنها بكفالة ، ولم تُفرض عليها رقابة الشرطة ، ولكنها كانت تخضع لرقابة أشد هى رقابة الضمير الحى الذى اعتصمت به طوال هذه الشهور ، فلم تضعف ولم تراودها أسباب التشبث بالحياة فتعدل عن موقفها ذاك ، بل ظلت تنتظر قَدَرَهَا على شوق ، وكأنها تنتظر يوم عيد ، حتّى إذا وضعت أسرعت إلى الرسول تضع وليدها بين يديه . وقد كانت حرِيَّة ألا تعود لو استجابت لنداء الأمومة بعد أن ازداد ارتباطها بالحياة .

ويمهلها الرسول فترة أخرى حتّى يُتِمَّ الوليد الرضاعة .

وتمتد بها التجربة عدة شهور أخرى ، وهى حرة طليقة إلا من قيد الضمير . لم يكن قدومُها على الرسول أول مرة بدافع الشعور الملتهب بالذنب ، أو فورة الحماس الوقتى ، فإذا ما أتيحت لها فرصة الإمهال فترةً بعد أخرى خمد شعورها الملتهب وسكنت فورة الحماس ، وعاودها تقدير الموقف بمنطق آخر يكفل لها السلامة والنجاة والتمتع بالحياة ، ولكنها ظلت تقضى هذه الفترات الطويلة الثقيلة مؤمنةً صابرة ، تزداد كل يوم إصراراً على ما آمنت به ، ثم تعود إلى الرسول ومعها وليدها

---

(١) الآية ٢٤ سورة النور .

قد فطمته وبيده كسرة خبز ، وكأنما تريد أن تقول للرسول معاتبة : لم يبق بعد الآن سبب تصرفني به ، وتحرمني حتى في التطهر والمغفرة !

إن الإيمان بالله ومراقبته في السر والعلن ، يُكسب الإنسان الشعور الحي برقابة الضمير . وأمامه التجربة التي يمارسها ثلاثين يوماً كل عام ، فكيف يكون حاله لو تابع هذه التجربة على مدى الشهور والأعوام ؟

وكيف يكون حال المجتمع لو استشعر أفراده رقابة الضمير في كل قول أو عمل ، وأقام كل منهم نفسه حارساً على القانون ، رقيباً على التزام حدوده ، أميناً في أداء واجبه ، مؤمناً بالجزاء العادل المحتوم .

لا أقول إن هذا المجتمع تنتفي فيه أسباب الجريمة والانحراف ، ويعيش فيه الناس أطهاراً كالملائكة ، فذلك خيال لا يمكن تحقيقه على هذه الأرض ولا تستجيب له طبيعة الحياة ، ولكن من الممكن أن أقول إن هذا المجتمع الذي تسود فيه رقابة الضمير وتلتقي مع رقابة القانون ، يتحقق فيه الأمن والسلام ، ويتضاعف فيه الإنتاج ، ويعيش أفراده في ظل الكفاية والعدل على صورة لا تتحقق في غيره من المجتمعات .

١٢

لبيك اللهم لبيك

من القيم الدينية ما يهدف إلى تكوين الفرد تكوينًا سليمًا ، وتربيته تربية قويمة ، بحيث يكون قوى العقيدة ، متين الخلق ، مستنير العقل ، يعرف ماله وما عليه ، وبذلك يكون مواطنًا صالحًا فى المجتمع ، وعضوًا نافعًا لنفسه ولأهله ولوطنه .

ومن القيم الدينية ما يتجه اتجاهًا مباشرًا إلى المجتمع ، فى حركة تمتزج فيها تربية الفرد بتوحيد مسيرة الجماعة ، ومن هذه القيم فريضة الحج التى تنتظم الملايين فى وقت معلوم ، يؤدون الشعائر من طواف بالكعبة ، وسعى بين الصفا والمروة ، ووقوف بعرفة . . . وقد توحدت قلوبهم وخطواتهم وأهدافهم ، استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام ، عندما توجه ببصره إلى السماء – وقد فرغ من بناء البيت العتيق – يقول : يارب ، قد فرغت . فتلقى الوحى أن أذن فى الناس بالحج . . .

قال إبراهيم : يارب ، وما يبلغ صوتى ؟

قال : إنما عليك الأذان ، وعلىّ البلاغ .

(وأَذِّن فِى النَّاس بِالْحجِّ يأْتُوكَ رِجالاً[1] وعلَى كُلِّ ضَامِرٍ[2] يأتِين مِنْ كُلِّ فَجٍّ عميقٍ[3] . لِيشْهَدُوا منَافِعَ لَهُمْ ويَذْكُرُوا اسمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَات)[4] .

ومنذ عهد إبراهيم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة ، تتوافد على البيت الحرام أفواج الحجيج من مختلف أرجاء الأرض ، ملبية دعوة الوحدة والتوحيد ، هاتفة من أعماقها : لبيك اللهم لبيك[5] .

والحج فريضة جامعة وهو كذلك فريضة جماعية ...

إنه فريضة جامعة لأنه يضم أركان الإسلام جميعًا : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله . لأن الحج يقوم على توحيد الله ، واتباع سنة رسوله فى أقواله وأفعاله .

وهو يضم الصلاة التى يؤديها الحاج خمس مرات كل يوم ، ويتذوق فى أدائها بالمسجد الحرام معانى جليلة . إن الصلاة فى هذا المسجد تعدل فى قيمتها وثوابها ألف صلاة فى غيره من المساجد ، عدا المسجد النبوى بالمدينة والمسجد الأقصى فى

---

(١) مشاة على أرجلهم .

(٢) الدابة الهزيلة التى أنهكها بعد المسافة .

(٣) طريق بعيد .

(٤) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ سورة الحج .

(٥) استجبنا لدعوتك يا الله .

بيت المقدس . كما أن الصلاة فى المسجد الحرام تجسد للحجاج الشعور بالوحدة الإسلامية ، حين يصطفون حول الكعبة من جميع جهاتها حلقة وراء حلقة حتى تمتلئ بهم ساحة المسجد الحرام ، وما تزال هذه الحلقات تتسع وتمتد فيما وراء الأفق حتى تشمل فى اتجاهها نحو الكعبة جميع أقطار الأرض ، فإذا سبعمائة مليون من المسلمين قد اتجهت قلوبهم وأبصارهم نحو الكعبة وقد رفعوا أيديهم إلى آذانهم هاتفين : الله أكبر !

ومن أعمال الحج الزكاة بمعناها العام ، والصوم تطوعًا أو فدية[١] لمن عجز عن أداء بعض شعائر الحج أو فاته شيء منها أو ارتكب بعض المحظورات[٢] . قال تعالى فى شأن هذه الحالات :

﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ ، فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ[٣] ﴾[٤] .

﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾[٥] .

---

(١) بديل .

(٢) الأعمال المحظورة فى الحج .

(٣) ذبيحة .

(٤) الآية ١٩٦ سورة البقرة .

(٥) الآية ١٩٦ سورة البقرة .

(. . . أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ، أَو عَدْلُ[1] ذَلِكَ صِيَامًا)[2] .

والحج يجمع إلى هذه الأركان الأربعة فريضة الجهاد ، ذلك لأن الحج فى رحلته المنسابة من مختلف أنحاء الأرض ، تلبية للنداء الإلهى بالتجرد والتجمع فى الأرض المقدسة ، وما تتطلبه هذه الرحلة من إعداد وتحمل لمشاق السفر ، واختلاف الأجواء والأطعمة والمنازل ومألوف الحياة . ثم أداء المناسك[3] فى مواقيت محدودة ، وتحركات موقوتة ، ونظام محكم دقيق ، كل ذلك ممارسة للجهاد على صورة تجمع إلى التعبئة الروحية ، الإعداد العسكرى القائم على القوة والطاعة والنظام .

وفى شعيرة رمى الجمرات[4] بمنى ، معنى آخر من معانى الجهاد . إن الحجاج يذهبون بعد النزول من عرفة إلى مكان « الرجم » عند العقبة ، وهو المكان الذى شهد قصة إبراهيم الخليل وهو يصحب ابنه إسماعيل ليحقق رؤياه :

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّى أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ : يَاأَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)[5] .

---

(١) ما يعادل ذلك .

(٢) الآية ٩٥ سورة المائدة .

(٣) الشعائر . أعمال الحج .

(٤) الحصى الذى يرميه الحجاج بعد نزولهم من عرفات وفى أثناء مقامهم فى منى .

(٥) الآية ١٠٢ سورة الصافات .

وفى هذا المكان يرمى الحجاج جمرة العقبة ، كما كان يفعل إبراهيم وابنه إسماعيل ، وهما يطاردان الشيطان الذى كان يتعقبهما ويوسوس لكل منهما ليصرف الأب الشيخ عن الوفاء بنذره ، ويصرف الابن الصالح عن طاعة أبيه ، أو لعل إبراهيم وابنه إسماعيل كانا يطاردان العواطف البشرية التى خلفاها عند أول الطريق ، عواطف الأبوة الرحيمة الحانية فى نفس إبراهيم ، وعواطف التشبث بالحياة فى نفس إسماعيل .

يفعل الحجاج ذلك كما كان يفعل إبراهيم وإسماعيل ، تعبيراً عن معنى مجاهدة النفس ، ويفعلون ذلك لمعنى آخر ، هو إثارة روح الكفاح فى نفس المؤمن ، وأن يكون موقفه من الظلم والعدوان « الرمى » والمواجهة ، وليس المصانعة والاستسلام .

* * *

والحج فريضة جماعية ، لأن كل ركن من أركان الإسلام يؤديه الإنسان منفرداً ، ومنها الصلاة التى تصح مفردة وجامعة ، إلا الحج فإنه فريضة جماعية تؤدى على المستوى العالمى . وهو بذلك يستهدف تحقيق غايتين :

أما الغاية الأولى فهى التجريد ، ولعلها وسيلة إلى الغاية الأخرى .

تجريد الإنسان من كل ما التصق به أو خالطه من مواريث فكرية أو اجتماعية ، ومن امتيازات طبقية أو جنسية ، تبعد به عن فطرته أو تقطع الصلات الإنسانية بينه وبين المجتمع .

فهو يجىء هنا متجرداً من كل زينة أو شارة ، فى لباس متواضع بسيط يتساوى فيه الغنى والفقير ، والأمير والأجير ، يذكره باللباس الذى يخرج به من دنياه ، يوم يستقبل الموت ويستدبر الحياة .

وهو يجىء هنا متجرداً من جاهه ، وعصبيته ، وطبقته ، وماله ، وولده . .

نكرة بين الملايين ، لا سيداً منتفخ الأوداج[1] بين الأتباع والعبيد .

وهو يجيء هنا متجرداً - بل متحرراً - من أغلال الفقر والعبودية ، فلا يرى للغنى المدلّ[2] بغناه ، ولا للجبار المعتز بسطوته ، ولا للأبيض المستعلى بلونه . لا يرى لهؤلاء فضلا ولا امتيازاً على من عداهم من الناس ، إلا بالتقوى والعمل الصالح لخير المجتمع ، وبما يملكون من رصيد إنسانى هو وحده الذى ترجح به كفة الميزان أو تشيل .

هذا هو التجريد الذى يعود بالضمير الإنسانى فى الحج إلى فطرته ، ويطرح عنه كل ما لصق به أو خالطه فى صراع الحياة من رواسب هى مبعث كثير من الشر والبغى والفساد ، وتستيقظ فى أعماقه المعانى الحقيقية لوجوده وإنسانيته ، فى مجتمع تتكافأ فيه الحقوق والواجبات .

(يَٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[1] .

وأما الغاية الأخرى بعد التجريد فهى التوحيد . وهى النتيجة الطبيعية لذلك ، والحكمة الكبرى فى فريضة الحج ، تنتهى إليها شعائره وتؤدى إليها أعماله .

التوحيد فى صورته الكاملة الشاملة ، فى الفكر والعمل ، فى الحقوق والواجبات .

---

(١) عروق العنق التى تنتفخ كبراً .

(٢) المتعاظم .

(٣) الآية ١٣ سورة الحجرات .

لأنه حين يتم التجريد فيعود المجتمع إلى فطرته السوية النقية ، يسهل على النفوس أن تتقبل معانى التوحيد فى ظل المبادئ الإنسانية ، فتتلاقى على هذه المبادئ تأخذ منها بمقدار ما تعطى ، لا تستأثر ولا تحتكر ، لا تحقد ولا تحسد ، لا تضل ولا تشقى .

تتلاقى الملايين فى موسم الحج من مختلف أقطار الأرض ، وقد اختلفت ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم ، وتباينت مستوياتهم الفكرية والاجتماعية ، فلا يلبثون وقد تلاقوا متجردين متحررين أن تتهيأ نفوسهم للوحدة . إنهم يلتقون وجهًا لوجه ، وقلبًا إلى قلب ، ورأيًا إلى رأى ، يتكاشفون ويتدارسون ، يعرضون على صعيد الوحدة كل ما لديهم من حصيلة العلم والتجربة ، وما فى بلادهم من كنوز الطبيعة ، وما فى شعوبهم من مصادر القوة . ثم يستعرضون ما أصاب بعض هذه الشعوب من تخلف وحرمان وعزلة فرضها الاستعمار على تعاقب العصور .

يستعرضون هذا وذاك ، فى وحدة فكرية واعية ، ونظرة شاملة متكاملة ، ثم يرسمون الطريق لتحرير أوطانهم ، واسترداد حقوقهم ، واستثمار مواردهم ، ورفع مستوى الحياة فى شعوبهم ، وتحقيق القوة والعزة والوحدة للمجتمع العربى والإسلامى ، الذى اختصه الله بكثير من المزايا فى موقعه من العالم ، وفيما تضمه أرضه وبحاره من كنوز الطبيعة ومصادر الثروة ، وماله من تاريخ حضارى متصل الحلقات منذ أقدم العصور . هذا المجتمع الذى ينتظره دوره الطليعى ليسهم مرة أخرى فى بناء الحضارة التى تقوم على الكفاية والعدل ، وتسعد فى ظلها الإنسانية ويتحقق لها الأمن والخير والسلام .

١٣
شهر القرآن

ليس بين الشهور ما يدانى شهر رمضان فى منزلته عند الله ، وفى بركاته التى تفيض على النفوس وتعمر القلوب ، وتنعكس آثارها على المجتمع حياة تتجدد فيها القيم الدينية والمبادئ الإنسانية ، فى مواجهة الصراع الذى يلف الحياة والأحياء وكأنه دوامة لا تهدأ وليس لها من قرار .

إن شهر رمضان أشبه ما يكون بواحة وارفة الظلال طيبة الهواء عذبة الماء موفورة الفاكهة يرفرف عليها الأمن والسلام ، يبلغها الإنسان بعد رحلة مرهقة فى صحراء الحياة ، وفى هذه الواحة يحط أثقاله ويسترد أنفاسه وتتحرر إرادته ، ويحل ضيفًا على أرحب ساحة وأكرم جوار . ثم يتزود لاستئناف رحلته فى الحياة بخير زاد .

أما علو منزلة هذا الشهر عند الله ، فيكفى للدلالة على ذلك أن الله – تبارك

وتعالى – أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وفرض فيه الصوم تزكية للنفوس . وقد سمّى هذا الشهر الكريم شهر الله ، وشهر القرآن ، وشهر النجاة .

وأما آثاره فى نفس الفرد وحياة المجتمع ، فإن أول مايفيده الإنسان من عبادة الصوم هو أن يتحرر من قيود العادة وعبودية الشهوة ، وأن يملك إرادته فيما يأخذ وما يدع ، ويكون صادقًا مع نفسه ومع الناس دون رقيب أو حسيب إلا رقابة الله والضمير .

ولهذا يباهى الله ملائكته بهذا المؤمن الصائم فيقول جل شأنه فى الحديث القدسى :

« ياملائكتى : انظروا إلى عبدى ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلى » .

إن رمضان هو شهر الوحى والقرآن والرسالة ، فيه بدأ اللقاء القدسى بين الأرض والسماء ، وفيه إلى جانب ذلك أعظم المعارك التى خاضها الرسول ﷺ جهادًا فى سبيل الحق والعدل والسلام .

إنه شهر مجاهدة وجهاد .

مجاهدة للنفس حتى تتحرر من عبودية العادات والشهوات والأهواء وترتفع فوق ضرورات الحياة ، وتقوى على تحمل الشدائد ومغالبة التحديات .

وجهاد فى سبيل المبادئ التى تصون للإنسان حريته وكرامته .

إن أول مظاهر الصوم وأساسه هو الامتناع عن الطعام والشراب ، وإذن فلا ينبغى أن يتحول شهر رمضان عند البعض إلى مائدة حافلة تلهب خيالهم طول اليوم ، وتتخم بطونهم بمجرد أن ينطلق أذان المغرب أو يدوى مدفع الإفطار .

الصوم يقوى الإرادة ويكبح جماح النفس ، وإذن فلا ينبغى أن يتخذ البعض من الصيام مبررًا لضيق الصدر وانفلات الأعصاب .

والصوم يكسب الإنسان نشاطًا فى الجسم وصفاء فى الذهن ، فهو أحرى بأن يمد الصائم قدرة على العمل وزيادة فى الإنتاج .

والصوم تطهير للنفس وتزكية للقلوب ، وترويض للجوارح على الطاعة ، وأخذ للأمور بالجد وصدق النية ، ومراقبة ذاتية للضمير ، وبذلك يمكن للإنسان أن يأخذ منه زاده على مدار العام ، وبذلك تتجدد حياته وتستمر على طريق الخير والحق والرشاد .

* * *

ألا وإن خير ما يتزود به المؤمن ويعمر به أيام رمضان ولياليه ، كتاب الله تبارك وتعالى ، يتلو آياته ويتدبر أحكامه . ويتصل بكتاب الله ما يعين على فهم مقاصده ، من حديث الرسول ﷺ وأقوال العلماء فى كل ما يتصل بعلوم القرآن من تفسير وفقه . . . فى العبادات والمعاملات ، وما يتفرع عن ذلك ويعبر عنه من علوم وفنون وآداب .

إن رمضان شهر القرآن . . فليكن هذا الشهر موسمًا لتلاوته ودراسته وتجديد الصلة به ، والاستمداد منه والسير على منهجه ، حتى يخرج الإنسان من هذا الشهر وقد توافرت لديه حصيلة علمية وشحنة روحية وممارسة عملية لآداب القرآن الكريم . إنها فرصة تشدنا إلى رحابه ، وتقوى صلتنا بأحكامه وآدابه .

عن على بن أبى طالب – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ستكون فتن كقطع الليل المظلم » .

قلت : يارسول الله ، وما المخرج منها ؟

قال : « كتاب الله تبارك وتعالى . فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ،

وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم . وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا تشبع معه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلَق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا . من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

وقال ﷺ :

« ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

أما آداب تلاوة القرآن الكريم ، وتمثل حكمته واستيعاب آياته ، فقد صور الإمام على – رضى الله عنه – ذلك فى وصفه للمتقين إذ قال :

« . . . أما الليل فَصَافُّونَ أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا . فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعًا ، وتطلعت نفوسهم إليها شوقًا ، وظنوا أنها نصب أعينهم . وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم ، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها فى أصول آذانهم . فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون » .

إن القرآن الكريم الذى استضاء هذا الشهر بنوره منذ نزل به الوحى على الرسول ﷺ وما يزال هو القبس الإلهى الذى يعطى شهر رمضان معناه المضىء واسمه الكريم : شهر القرآن .

وهذه المعانى المضيئة تشدنا إلى عدة حقائق : أن نعمر ليالى رمضان وأيامه بتلاوة القرآن الكريم وتدبر آياته ، وأن تنعكس هذه التلاوة فى سلوكنا برًّا وكرمًا وجهادًا فى سبيل الخير.

١٤

فريضة الصيام

يقول الله ، تبارك وتعالى :

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(١) .

وتفيد هذه الآية أن الصوم عبادة مفروضة فى جميع الأديان ، وعند جميع الأمم ، وإن اختلفت كيفيته ووقته .

ولقد بدأ نزول الوحى على الرسول ﷺ فى رمضان . وفى رمضان كذلك نزلت الكتب السماوية من قبل ، على إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام . . .

---

(١) الآية ١٨٣ سورة البقرة .

قال رسول الله ﷺ :

« أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لستٍّ مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان ، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان » .

فما الذى يدل عليه هذا الترابط بين نزول الكتب السماوية فى رمضان ، وبين فرض الصيام على أمة محمد ﷺ كما فرض على الأمم من قبلهم ؟

إن نزول الكتب السماوية : صحف إبراهيم ، والتوراة ، والإنجيل ، والقرآن . . هداية للبشر ونورًا على طريق الإنسانية ، نعمة كبرى من الخالق — جل جلاله — تستحق الشكر من عباده . وقد جعل الله هذا الشكر الذى يرضاه ويتقبله فى صورة الصوم ، لأنه تقرب إلى الله بالتجرد عن أخص مقومات البشرية . . الطعام والشراب والشهوة . وفرض الله — سبحانه — عبادة الصوم هذه فى الشهر الذى أنزل فيه القرآن ، وأنزلت فيه من قبل صحف إبراهيم والتوراة والإنجيل .

* * *

وقد فرض الله الصيام فى العام الثانى من الهجرة . وكان الرسول ﷺ عندما هاجر من مكة إلى المدينة يصوم يوم عاشوراء ، فلما فرض صيام شهر رمضان نسخ صيامه كل صوم ، وصار ما عداه تطوعًا من شاء صامه ومن شاء تركه .

وللصوم عند الله منزلة كبيرة بين سائر العبادات ، يقول الله — تبارك وتعالى — فى الحديث القدسى :

« كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى ، وأنا أجزى به » .

ويقول الرسول ﷺ :

« من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وقال ﷺ لما حضر رمضان :

« يا أيها الناس : قد جاءكم رمضان شهر عظيم مبارك ، افترض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل فيه الشياطين . فيه ليلة خير من ألف شهر » .

وقال ﷺ :

« والذى نفس محمد بيده ، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

وقال : « من أفطر يومًا من رمضان فى غير رخصة رخصها الله له ، لم يقض عنه صيام الدهر وإن صامه » .

وقال الحسن البصرى :

« إن الله تعالى جعل رمضان مضمارًا لخلقه ، يتسابقون فيه بطاعته إلى مرضاته ، فسبق قوم ففازوا ، وتخلف آخرون فخابوا ، فالعجب من الضاحك اللاعب فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ويخسر المبطلون » .

* * *

والصوم هو الإمساك عن الطعام والشراب ومباشرة النساء ، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

ولكن الإمام الغزالى يرى أن الصوم ثلاث درجات :

- صوم العموم : وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة .
- صوم الخصوص : وهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام .
- صوم خصوص الخصوص : وهو صوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية .

ويقول الإمام الغزالى : « إن هذه الدرجة الثالثة من الصوم ، يحصل الفطر فيها بالفكر فيما سوى الله – عز وجل – واليوم الآخر ، وبالفكر فى الدنيا إلا دنيا تراد للدين » .

ونحن لا نطمع فى أن نصل إلى هذه الدرجة الثالثة ، وإن كان الطموح فى أمر الدين لا يقل شرفًا وهمة عن الطموح فى أمر المعاش ، ولكن الذى يتصل بحقيقة الصوم وحكمته اتصالا وثيقًا هو ما أورده الإمام الغزالى فى الدرجة الثانية ، وهو كف الجوارح عن الآثام ، وهذا يستدعى بالضرورة أن يتحرى الإنسان فى صيامه ما هو أبعد من شهوة البطن والفرج . هناك شهوة الجوارح : السمع والبصر واللسان واليد والرجل وغيرها من الأعضاء . . إن الصوم لا يتم معناه وتتحقق ثمرته إلا بإمساك هذه الجوارح عن المنكر :

وفى ذلك يقول الرسول ﷺ :

«كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش» .

ويقول : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

ويقول : إنما الصوم جُنة ، فإذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إنى صائم ، إنى صائم » .

ويقول : « إن الصوم أمانة ، فليحفظ أحدكم أمانته » .

هذا وليس بصائم من ترك ما أبيح له ، ووقع فيما حرم عليه . ذلك لأن الصائم يمسك عن الطعام والشراب ومباشرة الزوجة ، وكل هذا من الطيبات التى أحلها الله . امتثالاً لأمر الله تعالى وتقربًا إليه بالطاعة والعبودية والإخلاص . فكيف بهذا الصائم لا يمسك بصره عن النظر إلى ما حرم الله من عورات النساء ، ولا يمسك لسانه عما نهى الله عنه من الكذب والنميمة ، ولا يمسك أذنه عن سماع الأكاذيب

والشائعات ، ولا يمسك يده عن السرقة والتطفيف فى الكيل والميزان ، ولا يمسك رجله عن السعى إلى ما يغضب الله ؟

إن مثل هذا هو الذى يطلق عليه وصف : الصائم المفطر ! !

* * *

هذا وجدير بالإنسان بعد أن تذوق حلاوة العبادة فى شهر رمضان ، واستمتع بثمرات الصوم فى جسمه وروحه ، ألا ينقطع عن ممارسة هذه العبادة تطوعاً بعد انقضاء رمضان .

إن صيام التطوع يدل على قوة الإخلاص ، فى العبادة لله – تبارك وتعالى – وهو من النوافل التى قال عنها – سبحانه – فى حديثه القدسى :

« ما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ولئن سألنى لأجيبنه ، ولئن استعان بى لأعيننه » .

ذلك لأن النوافل ، وهى العبادات غير المفروضة ، إنما يكون الدافع إليها شدة الرغبة فى الإقبال على الله ، والاستزادة من فضله ورضوانه ، وأداء حق الشكر على نعمه وآلائه ، ولهذا تبلغ بصاحبها مقام الحب الإلهى ، وما يفيضه على المؤمن من أنوار الهداية ومنح العناية .

وأول ما يلحق برمضان من هذه النوافل ، صيام ستة أيام من شوال .

وعن ذلك يقول الرسول ﷺ :

« من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال فذاك صيام الدهر » ، أى كأنه صام العام كله .

يفسر ذلك قوله عليه الصلاة والسلام :

« من صام رمضان وستة أيام بعد الفطر كان تمام السنة . من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » .

ذلك أن كل يوم من أيام رمضان يعدل صيام عشرة أيام ، فالشهر يعدل ثلثمائة يوم ، وستة من شوال تعطى فى ميزان الله صيام ستين يوماً فتلك أيام العام كله . . ثلاثمائة وستون .

وإن فى صيام ستة أيام من شوال لحكمة جليلة ، إنه امتداد لأسلوب العبادة الذى ألفه الصائم فى رمضان ، لفترة يتدرج فيها بين الصيام المستمر لمدة ثلاثين يوماً ، وبين الإفطار بقية العام .

١٥

التهجد وقيام الليل

حين يرخى الليل سدوله ، وتهدأ حركة الحياة والأحياء ، ويأوى الناس إلى مضاجعهم بعد تعب النهار ، وتستغرق الأجسام فى النوم والأحلام .

فى ذلك الوقت نجد من الناس فريقين لا يطرق النوم عيونهم ، يفضلون ليلهم ساهرين والناس نيام ، ولكن شتان بين فريق وفريق .

أما أولهم ففريق يريد الهروب من واقعه والتخلص من متاعبه ، فيضل الطريق إلى الملجأ المكين الذى يجد فيه سكينة النفس وطمأنينة القلب ، وتستهويه الشياطين إلى دور الملاهى وموائد القمار ومجالس السوء .. يحاول أن يغرق فيها همومه وينسى نفسه . وإنه ليظفر من ذلك ببعض مايريد ، ولكنه ينصرف آخر الليل محطم الأعصاب خاوى الجيب كئيب النفس .. وإن كئوس المتعة التى شربها ليطفئ بها ظمأه ويغرق فيها متاعبه ، لم تزده إلا ظمأ وحرقة ، ولم يلبث أن يتبدد أثرها فى

جسمه ونفسه ، ليفيق على واقعه الأليم الذى حاول الهروب منه ، فإذا هو مازال يرسف فى أغلاله ، وقد أضاف إلى ذلك أنه أصبح أسير هذه العادة التى استهوته إليها الشياطين .

هذا فريق من الناس يحيى الليل ويميت قلبه ونفسه .

وأما الفريق الآخر فما أبعد الفرق ، وما أشد اختلاف الصورة .

إنهم قوم استقام منهجهم بالنهار والليل ، يعرفون حق الله وحق أنفسهم فى معاشهم بالنهار ، ويقومون بشكر الله على فضله حين تنام العيون !

يصفهم الإمام على - كرم الله وجهه - فيقول :

« أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا .. وأما النهار فحلماء علماء ، أبرار أتقياء » .

ومن أوصافهم أنهم رهبان بالليل فرسان بالنهار !

وإذا كان الفريق الأول يحاول أن يفر من همومه وأوزاره بإغراق نفسه فى المعاصى والملذات المحرمة ، فإن الفريق الآخر يفر إلى الله متجرداً عن عيوبه مستغفراً لذنوبه ، هم يلجأون إلى الله فى هدأة الليل وقد سكنت من حولهم الحياة ونامت العيون ، يحيون ليلهم بالذكر والصلاة والاستغفار والدعاء ، فتنسكب فى أرواحهم الطمأنينة وتغشاهم الرحمة ، وتمتلئ نفوسهم قوة بالله فى مغالبة متاعب الحياة .

وقيام الليل من أعظم القربات إلى الله ، وهو فى رمضان أعظمها قربة وأكثرها ثواباً منه فى سائر الأوقات ، وهو فى ليلة القدر قمة العبادة فى شهر رمضان !

ولقد وصف الله - تبارك وتعالى - عباد الرحمن الذين كرمهم بأن نسبهم إلى نفسه فقال مما وصفهم به :

(وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وقيامًا) [1] .

وقال تعالى فى وصف المؤمنين :

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) [2] .

وقيل فى تفسير قوله تعالى :

(وَاسْتَعِينوا بالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) [3] .

« .. استعينوا بصلاة الليل على مجاهدة النفس ومصابرة العدو . وقال تعالى لرسوله الكريم بعد أن أنزل عليه الوحى ، ليهيئه لحمل تبعات الرسالة :

(يأَيُّهَا الْمُزَّمِّل . قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً . نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً . إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً . إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطأً وَأَقْوَمُ قِيلاً . إِنَّ لَكَ فى النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً . وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) [4] .

وكان الرسول ﷺ حين انقطع عنه الوحى فترة بعد ليلة : اقرأ .. قد حزن حزنًا شديدًا حتى كاد يتردى مرارًا من رءوس الجبال الشاهقة . ويقول ﷺ :

---

(١) الآية ٦٤ سورة الفرقان .

(٢) الآية ١٦ سورة السجدة .

(٣) الآية ٤٥ سورة البقرة .

(٤) الآيات من ١ إلى ٨ سورة المزمل .

« بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتًا من السماء ، فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملونى .. زملونى .. فأنزل الله :

(يأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ..) (١) .

ثم نزلت عليه سورة المزمل .. أى المدثر ، المتلفف فى ثيابه .. على أسلوب العرب عند الملاطفة ، حين تنادى الشخص بالاسم المشتق من حالته التى هو عليها .. فكان هذا النداء من الله ملاطفة لرسوله وتطمينًا لقلبه ، ثم كانت هذه السورة توجيهًا له إلى قيام الليل ، وما فى القيام من رياضة للنفس وعبادة الله تعالى .

وفى هذه السورة عدة معان لقيام الليل يحسن أن نقف عندها قليلا :

« إن الله – تبارك وتعالى – حين أوجب على رسوله ﷺ قيام الليل ، خيره بين أن يقوم نصفه أو ثلثه أو ثلثيه فقط . فكان الرسول ﷺ وكان أصحابه – اقتداء به – يقومون الليل كله خوفًا من الإخلال بالمقدار المطلوب لعدم التمكن من ضبطه ، واشتد عليهم ذلك حتى تورمت أقدامهم من مشقة القيام . فلما صدقوا الله فى أداء هذه العبادة أنزل الله على رسوله فى آخر هذه السورة قوله تعالى :

(إنَّ ربَّك يعلمُ أنَّك تَقُومُ أدْنَى من ثُلثى اللَّيل ونصفَه وثُلُثَهُ ، وطَائفَةٌ من الَّذين معكَ ، والله يُقَدِّر اللَّيل والنَّهار ، علم أَلَّن تُحْصوهُ فَتَابَ علَيكُم ، فاقْرءُوا ما تيسَّر مِن القُرآن ،

---

(١) الآيتان ١ و ٢ سورة المدثر

عَلِم أن سيكُون مِنكُمْ مَرضَى . وآخرونَ يضْربون فى الأرض يبتَغُون مِن فَضْل الله وآخرونَ يقَاتِلونَ فى سبيلِ اللهِ فاقرءوا ما تيسَّر مِنه ، وأقِيمُوا الصَّلاةَ وآتوا الزكاةَ وأقرِضوا الله قرضًا حسنًا ، وما تقَدِّموا لأنفسِكم مِن خيرٍ تَجدوهُ عنْد الله هو خيْرًا وأعْظم أجرًا ، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) [1] .

● إن المقصود بترتيل القرآن فى قيام الليل ، ليس قراءته فحسب .. ولكن المعنى ينسحب على الصلاة ، لأن الصلاة تسمى قرآنًا ... فذلك قوله تعالى :

(وقرآن الفَجرِ إنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مشهُودًا) .

أى صلاة الفجر ، ويفسر ذلك أيضًا ماورد من كلام الإمام على بن أبى طالب فى وصف المتقين : « أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا .. فهم حانون على أوساطهم « فى الركوع » مفترشون « فى السجود » لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم .. »

إن ناشئة الليل ، أى عبادة الليل هى أشد ثباتًا فى القلب . وقيل النفس الناشئة .. أى النفس المتهجدة ، لأنها تنشأ – أى تنهض – من مضجعها للعبادة ، كما أن الإنسان يكون عادة مشغولا بعمله والسعى على معاشه بالنهار ، فلا يستطيع أن يتفرغ للعبادة إلا فى الليل ، حيث تكون العبادة فيه أدعى لحضور القلب ، والانصراف إلى الله عن كل ما عداه .. وهذا هو معنى التبتل إلى الله .

« إن الله – تبارك وتعالى – قد خفف على رسوله وعلى المؤمنين قيام الليل على

---

(١) الآية ٢٠ سورة المزمل .

هذه الصورة ، وجعله ميسرًا لمن أراد أن يؤدى هذه العبادة فقال :

(فاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) .

أى فأدوا ما تيسر من الصلاة . وقوله ﷺ فى قيام الليل : « من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات ... »

وقال ﷺ : « صل من الليل ولو قدر حلب شاة » ،

وقدر ذلك بنحو أربع ركعات .

* * *

وفى فضل قيام الليل يقول الرسول ﷺ : « أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل » .

وفى الليل تصفو النفوس من مشاغل الحياة فيكون إقبالها خالصًا على الله . إنها لتجد فى ظلام الليل نور الله يتجلى على عباده فتطيب القلوب بمناجاته وتشرق الوجوه باجتلاء آياته .

قيل للحسن بن على ، رضى الله عنهما :

مابال المتهجدين من أحسن الناس وجوهًا ؟

فقال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورًا من نوره .

وقال لقمان الحكيم لابنه : يابنى لا يكونن الديك أكيس منك ، ينادى بالأسحار وأنت نائم .

وقال سفيان الثورى ، رضى الله عنه :

– إذا كان أول الليل نادى مناد من تحت العرش : ألا فليقم العابدون ، فيقومون ويصلون إلى السحر . فإذا كان السحر نادى مناد : ألا فليقم المستغفرون ، فيقومون ويستغفرون . فإذا طلع الفجر نادى مناد : ألا فليقم الغافلون ، فيقومون من فرشهم كالموتى من قبورهم .

وفى هذا القول معان من قول الرسول ﷺ :

« يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب مكان كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد . فإذا استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها ، فأصبح نشيطًا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » .

ألم يلاحظ أحدكم هذا الشعور حين يستيقظ قبل طلوع الفجر فيتوضأ ويصلى ويذكر الله تعالى ، فإذا هو يستقبل يومه نشيطًا طيب النفس ، فإذا ظل نائمًا فى فراشه حتى تطلع الشمس قام على هذه الحالة التى وصفها الرسول ﷺ .

على أن قيام الليل مع مايبذله الإنسان من جهد العمل بالنهار يحتاج إلى تنظيم وحسن تدبير ، حتى لا يؤدى إلى الإرهاق وتعطيل الإنسان عن معاشه .

وأول ما يجب تدبره فى ذلك أن يحسن الإنسان تقسيم اليوم والليلة بين العمل والنوم والراحة . إن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة . وحد الاعتدال فى النوم ثمانى ساعات . أفلا يكفيه أن ينفق فى النوم ثلث عمره ؟!

فإذا استطاع أن يقضى هذه الساعات متصلة ، كان له أن ينام مبكرًا ثم يستيقظ فى الثلث الأخير من الليل فيقوم ما بقى منه فى الذكر والصلاة . وإذا شاء نام قليلا واستوفى حظه من النوم فى الليل ، وإنه لواجد فسحة من الوقت تتبقى له يقضيها فى القيام للتهجد والصلاة .

ويكره قيام الليل حتى صلاة الفجر ، لأن ذلك يترك أثره على نشاط الإنسان فيغدو على عمله وهو معرض للنعاس .. ولقد كان الرسول ﷺ يقوم الليل ما شاء الله أن يقوم ثم ينام حتى يؤذن بلال للصلاة .

وإن من قيام الليل ما لا يشق على أحد مهما كانت ظروفه ، ذلك هو إحياء ما بين المغرب والعشاء .

روى الحسن – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ سئل عن المراد بقوله تعالى :

(تتجافى جُنُوبُهُمْ عنِ المَضَاجعِ) .

فقال : الصلاة بين العشاءين « المغرب والعشاء » . ثم قال ﷺ :

– « عليكم بالصلاة بين العشاءين ، فإنها تذهب بملاغاة النهار « من اللغو » وتهذب آخره » .

وإن مما يعين على قيام الليل أمورًا منها :

– الإقلال من الطعام والشراب عند تناول العشاء .

– أن يعتاد الإنسان النوم بعض الوقت فى النهار .

– وقبل هذا وذاك أن يستشعر الخوف من الله والرجاء فى رحمته .

إن ذلك كفيل بأن يصرف عنه النوم ، ويشد عزمه قيام الليل ، حيث يجد فى معاناة الخوف والرجاء مايجده العاشق من لواعج الحرمان وأشواق الوصال . وإذا كان الإنسان لا يطرق النوم جفنه إذا شغلته مشكلة من مشكلات الحياة ، أو إذا شفه الشوق إلى حبيب أو قريب ، فكيف تطيق عيناه النوم إذا ما استحضر مشكلة وجوده ومصيره ؟!

وكيف لا ينشط للسهر ولا يستمتع بلذة قيام الليل حيث يخلو الحبيب بحبيبه يناجيه ويتقرب إليه ويستمد من رحمته ونوره ؟

قال الإمام الغزالى رضى الله عنه : روى عن بعض السلف أن الله أوحى إلى بعض الصديقين أن لى عبادًا من عبادى يحبونى وأحبهم ، ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ، ويذكرونى وأذكرهم ، وينظرون إلى وأنظر إليهم . فإن حذوتَ طريقَهم أحببتك ، وإن عدلت عنهم مقتك . قال يارب ، وما علامتهم ؟

فذكر من علاماتهم أنهم يحنّون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب . فإذا جنّهم الليل واختلط الظلام ، وفرشت الفرش ونصبت الأسرة ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، نصبوا إليّ أقدامهم وافترشوا إلى وجوههم ، وناجوني بكلامهم وتملقوا إلى بإنعامي . فهم بين صارخ وباك ، وبين متأوه وشاك ، وبين قائم وقاعد ، وبين راكع وساجد . بعيني ما يتحملون من أجلي ، وبسمعي ما يشتكون من حبي . أول ما أعطيهم ثلاث : أقذف من نوري فى قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم . والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيها فى موازينهم لاستقللتها لهم . والثالثة أقبل بوجهى عليهم ، ومن أقبلت عليهم بوجهى لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه .

١٦
ادعونى أستجب لكم ..

يقول الرسول ﷺ :

« إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى فيها خيرًا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ، وذلك كل ليلة » .

وما أجمل أن يتوجه الإنسان إلى الله بالدعاء فى جوف الليل ، وقد هجعت القلوب ونامت العيون .

إن الدعاء عبادة ، كما يقول الرسول ﷺ وهو بالليل أحرى بالإجابة والقبول ، حيث يكون الإنسان قريبًا من رحمة ربه التى يتجلى بها على عباده وفى ذلك يقول الرسول ﷺ :

- ينزل الله تعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول

عز وجل : « من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له ؟ » .

وإذا كان الله تبارك وتعالى يقول :

(ادعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) (١) . وذلك فى أى وقت يتجه فيه الإنسان إلى الله بقلب سليم ، فإن هناك أوقاتًا يكون فيها الدعاء أقرب إلى الإجابة ، ووقت السحر من ساعات الليل .

ومنها الدعاء بين الأذان وإقامة الصلاة ، وعند السجود حيث يكون العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، وأن يدعو الإنسان لأخيه بظهر الغيب .

وخير الدعاء ما ورد فى كتاب الله . ومن ذلك قوله عز وجل :

(... ربَّنا هَبْ لَنَا منْ أزْواجِنا وذُرِّيَّاتِنا قُرة أعْيُنٍ واجعلنا للمُتَّقين إمامًا) (٢) .

(ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ولإخْوانِنا الَّذين سبقُونا بالإيمان ولاَ تجعل فى قُلُوبِنَا غلاًّ للَّذين آمنُوا ربَّنا إنَّك رءُوفٌ رحيمٌ) (٣) .

(ربَّنا لاَ تزغْ قُلُوبنَا بعدَ إذْ هديْتَنَا وهَب لنَا مِن لَّدنْكَ رحمةً إنَّك أنْت الْوهَّابُ) (٤) .

---

(١) الآية ٦٠ سورة غافر .

(٢) الآية ٧٤ سورة الفرقان .

(٣) الآية ١٠ سورة الحشر .

(٤) الآية ٨ سورة آل عمران .

(رَبَّنَا لاَ تؤاخِذْنا إنْ نسينا أوْ أخطأنَا ، ربَّنَا ولاَ تحمِلْ عَلينْا إصرًا كَما حملْته على الَّذين مِنْ قَبلنَا ، ربَّنَا ولا تحَمِّلْنَا ما لاَ طَاقةَ لَنا بِه ، واعْفُ عنَّا واغْفِر لَنَا وارْحمنَا أنْت مولاَنَا فَانصرْنَا عَلى القَوْمِ الكافِرين)(١) .

(ربَّنَا آتِنَا فى الدُّنْيا حسَنةً وفى الآخرة حسَنةً وقِنَا عذَاب النَّارِ)(٢) .

ثم ما كان يدعو به الرسول ﷺ من مأثور الدعاء .

ومن ذلك قوله : اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال .

وكان من عادته ﷺ حين يقوم للتهجد بالليل أن يتوضأ ثم يتوجه إلى مصلاه ويقوم مستقبلا القبلة ويقول :

« اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ، ومن فيهن ومن عليهن ، أنت الحق ، ومنك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنشور حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حق . اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت

---

(١) الآية ٢٨٦ سورة البقرة .

(٢) الآية ٢٠١ سورة البقرة .

وبك خاصمت وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وأسرفت ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ، اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها ، اللهم اهدنى لأحسن الأعمال لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها لا يصرف سيئها إلا أنت ، أسألك مسألة البائس المسكين ، وأدعوك دعاء المفتقر الذليل ، فلا تجعلنى بدعائك رب شقيًّا ، وكن بى رءوفًا رحيمًا ، ياخير المسئولين وأكرم المعطين » .

هذا وللمرء أن يدعو الله بما شاء مما يصلح دنياه وآخرته ، وأن يكثر من الدعاء ما استطاع فإن فى ذلك مرضاة لله تبارك وتعالى . يقول الرسول ﷺ :

« سلوا الله تعالى من فضله فإن الله يحب أن يُسأل ، وأفضل العبادة انتظار الفرج » .

ويقول ﷺ :

« ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها ، حتى يسأل شِسع (سير) نعله إذا انقطع » .

فإذا أبطأت الإجابة فإن لذلك أسبابًا منها :

أن يكون الداعى مقصرًا فى حق الله أو حق الناس فذلك حجاب دعوته ، أو يكون رجلا صالحًا يدخر الله له أفضل مما طلب . قال الرسول ﷺ :

« مامن رجل يدعو الله تعالى إلا استجاب له ، فإما أن يعجل له فى الدنيا ، وإما أن يدخر له فى الآخرة ، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر مادعا ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل » .

ومن المؤمنين من تسمو مراتبهم فيكتفون بالثناء على الله تبارك وتعالى ، ويشغلهم حمده والثناء عليه عن مسألته والتوجه إليه بالدعاء ، وفى هؤلاء يقول الله تبارك وتعالى فى حديثه القدسى :

— « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

وعن الحسين بن الحسن المروزى قال : سألت سفيان بن عيينة عن أفضل الدعاء يوم عرفة ، فقال :

— « لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .

قلت له : هذا ثناء وليس بدعاء .

فذكر له هذا الحديث القدسى : ثم قال سفيان : أما علمت ما قال أمية بن أبى الصلت حين أتى عبد الله بن جدعان (من أجواد العرب) فقال :

أأذكُرُ حاجتى أم قد كفانى
حياؤك إن شيمتك الحياءُ
وعلمُك بالحقوق وأنت فرعٌ
لك الحسب المهذَّب والسناءُ
إذا أثنى عليك المرءُ يومًا
كفاه من تعرَضِه الثناءُ

ثم قال سفيان : هذا مخلوق يكتفى بالثناء عليه دون مسألة ، فكيف بالخالق ؟!

وأما الاستغفار فهو الدعاء بطلب المغفرة ، إن كل إنسان معرض لأن يخطئ أو يذنب ، وإن من أسماء الله تبارك وتعالى الغفار الغفور التواب الرحيم ..

يقول — جل شأنه — فى وصف المتقين :

(والَّذِين إذَا فَعلُوا فاحِشَةً أوْ ظَلَمُوا أنفُسهم ذَكروا الله فَاستَغْفروا لِذنُوبِهِمْ ، ومنْ يغْفر الذُّنوب إلاَّ الله ، ولَم يصِرُّوا علَى مافعَلوا وهُمْ يعلَمونَ)(١) .

---

(١) الآية ١٣٥ سورة آل عمران .

وقال فى وصف هؤلاء :

(الصابرين والصَّادقين والقَانِتِين والمنْفِقينَ والمُستغْفرين بالأسحار)[1] .

وقال تعالى :

(ومنْ يعْملْ سُوءًا أوْ يظلم نَفْسهُ ثُم يستغفرِ الله يجد الله غَفُورًا رحيمًا)[2] .

وقال ﷺ :

« إن أفضل الاستغفار : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ماصنعت وأبوءُ (أرجع) لكِ بنعمتك علىّ ، وأبوء على نفسى بذنبى ، فقد ظلمت نفسى واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنوبى ما قدمت منها وما أخرت ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

على أن للاستغفار شروطًا لا يصح ولا يكون مقبولا عند الله إلا بها .

قال رجل بحضرة الإمام على ، رضى الله عنه : أستغفر الله .

فقال له كرم الله وجهه :

– « ثكلتك أمك .. أتدرى ما الاستغفار ؟ الاستغفار درجة العليين ، وهو اسم واقع على ستة معان :

* أولها الندم على مامضى ..
* والثانى العزم على ترك العودة إليه أبدًا ..

---

(١) الآية ١٧ سورة آل عمران .

(٢) الآية ١١٠ سورة النساء .

« والثالث أن تؤدى إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك التبعة .

« والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدى حقها .

« والخامس أن تعمد إلى اللحم الذى نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق بالجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد ...

« والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية ... فعند ذلك تقول : أستغفر الله » .

وكانت رابعة العدوية – رضى الله عنها – تقول : إن استغفارنا يحتاج إلى استغفار !

ومن فضل الله تعالى على المستغفرين ، أنه يستر عيوبهم ويغفر ذنوبهم يزيدهم فضلا فيمنحهم الرزق الوفير .

قال تبارك وتعالى :

(فقُلْتُ استغْفروا ربَّكم إنَّه كَانَ غَفَّارا . يُرسل السَّماء عليْكُم مِّدْرارًا . ويمدِدْكُمْ بِأمْوالٍ وبنين ويجعَل لَّكُمْ جنَّاتٍ ويجعل لَّكُم أنْهارًا)[1] .

---

(١) الآيات ١٠ و ١١ و ١٢ سورة نوح .

١٧

اذكرونى .. أذكركم

للذكر معان وصور كثيرة :

- فالذكر هو القرآن الكريم كما ورد ذلك فى آيات كثيرة ، يقول الله تبارك وتعالى :

(إنا نَحْن نَزَّلنَا الذِّكَر وإِنَّا لهُ لحافظُون) (١)

(وهَذا ذكرٌ مُباركٌ أنزلنَاهُ أفأنتُم لَه منكِرونَ) (٢)

(إنْ هو إلاَّ ذِكرٌ وقرآنٌ مُبين) (٣) .

---

(١) الآية ٩ سورة الحجر .

(٢) الآية ٥٠ سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٦٩ سورة يس .

ولهذا فإن تلاوة القرآن الكريم والاستماع إليه ، وتدبر معانيه وتمثلها فى القول والعمل ، أفضل أنواع الذكر وأعمها أثرًا فى النفوس وأكثرها قبولا عند الله .

والذكر يكون بمعنى حضور القلب وظهور برهان الله :

يقول الله تبارك وتعالى :

(إنَّ الَّذِين اتَّقوا إذا مَسَّهم طَائف مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكروا فإذَا هُم مُبْصرُون)(١) .

(ولَقَدْ هَمَّتْ به وهَمَّ بِهَا لَولا أنْ رأى بُرْهانَ ربِّه)(٢) .

(واذْكُر ربَّكَ فى نَفْسِك تَضَرُّعًا وخِيفَةً)(٣) .

(واذْكر ربَّك إذَا نسِيت وقُل عسى أنْ يهدينى ربى لأقرب مِنْ هَذَا رشَدًا)(٤) .

ويكون الذكر باللسان وهو رياضة الجوارح تستثير به كوامن النفس ، وحضور القلب وتنشغل به عن اللغو ، وفى كلٍّ خير .

يقول الله تبارك وتعالى :

(ألا بِذكْر الله تَطمَئِنُّ القلوبُ)(٥) .

---

(١) الآية ٢٠١ سورة الأعراف .

(٢) الآية ٦٤ سورة يوسف .

(٣) الآية ٢٠٥ سورة الأعراف .

(٤) الآية ٢٤ سورة الكهف .

(٥) الآية ٢٨ سورة الرعد .

ويقول رسول الله ﷺ :

- « ماعمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل .

قالوا : يارسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله ؟

قال : ولا الجهاد فى سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ، ثم تضرب به حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع » .

وقال ﷺ :

- « سبعة يظلهم الله - عز وجل - بظله يوم لا ظل إلا ظله » .

ومن هؤلاء السبعة رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه من خشية الله .

ويقول ﷺ :

- « ماجلس قوم مجلسًا يذكرون الله عز وجل ، إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله تعالى فيمن عنده » .

وقال ﷺ :

- إن لله ملائكة سياحين فى الأرض .. يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجاتكم . فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم : ما يقول عبادى ؟

فيقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك ... » .

فيقول : هل رأونى ؟ فيقولون : لا والله ما رأوك .

فيقول : كيف لو رأونى ؟ فيقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد تمجيدًا وأكثر تسبيحًا .

فيقول : فمايسألونى ؟ فيقولون : يسألونك الجنة .

فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله يارب مارأوها .

فيقول : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا ، وأشد لها طلبًا ، وأعظم فيها رغبة .

قال : فمم يتعوذون ؟ فيقولون : من النار .

فيقول الله : هل رأوها ؟ فيقولون : لا والله يارب ما رأوها .

فيقول الله : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا ، وأشد لها مخافة .

فيقول : فأشهدكم أنى قد غفرت لهم .

فيقول ملك من الملائكة : فيهم (فلان) عبد خطَّاء ليس منهم ، إنما جاء لحاجة .

فيقول : وله قد غفرت ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ... » .

وقال ﷺ :

- « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قيل : ومارياض الجنة ؟

قال : مجالس الذكر .

وكان عمر - رضى الله عنه - يقول لمعاذ بن جبل :

- « قم بنا نؤمن ساعة » .

فيقفان ويقولان : لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله .. (جماعة) ويقول عمر : هى ورب الكعبة .

وروى أبو نعيم عن الفضيل بن عياض - رضى الله عنه - قال :

- كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا ذكروا الله تعالى تمايلوا يمينًا وشمالا ، كما تمايل الشجرة فى الريح العاصف إلى قدام ثم ترجع إلى الوراء .

ومن هذا أخذ بعض الذاكرين طريقتهم فى الذكر على هذه الصورة ، وإنما يحصل الوجد بمقدار التذوق ، وتهتز الجوارح بمقدار صدق الشعور ، على ألا يخرج

الذاكرون عن مقام الخشية لله التى تفسدها عربدة الجوارح ومزامير الشيطان .

يقول الله تبارك وتعالى :

(اللهُ نَزَّل أحْسن الحدِيث كِتابًا مُتَشَابِهًا مثَانى تقشعر منه جُلُودُ الَّذين يخْشونَ ربَّهم ثُمَّ تَلينُ جُلُودُهم وقُلُوبُهُمْ إلى ذِكرِ الله)(١) .

وفى وصف أحوال الذاكرين يمتدح الإمام على رضى الله عنه أحدهم فيقول :

« إن كان فى الغافلين كُتب فى الذاكرين ، وإن كان من الذاكرين لم يكتب من الغافلين » .

ذلك أن من الذاكرين من تكون ألسنتهم ناطقة وقلوبهم غافلة ، وإن من الذاكرين من تصمت ألسنتهم وتكون قلوبهم مشتغلة بذكر الله .

هذا وإن جماع هذه المعانى كلها أن يكون الله – تبارك وتعالى – حاضرًا فى قلبك وسلوكك وغايتك ، لا تغفل عن هذه الحقيقة الكبرى مهما انصرفت بك الشواغل واستبدت بك الأهواء . فإذا كنت ذاكرًا لله تعالى فى سكناتك وحركاتك ، فى أقوالك وأفعالك ، فى قصدك وغايتك ، لم تحد عن الطريق المستقيم فى علاقتك بالله وعلاقتك بنفسك وعلاقتك بالناس ...

وبذلك تستحق وعد الله – تبارك وتعالى فى قوله :

(اذكُرُونى أذْكُركُمْ) .

– (ولذِكرُ الله أكْبرُ !) .

---

(١) الآية ٢٣ سورة الزمر.

١٨

رضا الله .. وسخط الناس

المؤمن الحق هو الذى يعبد الله مخلصًا له الدين ، يأتمر بأوامره وينتهى عن نواهيه . لا تأخذه فى الله لومة لائم ، يلتمس رضا الله فيما يقول ويفعل ولو أغضب الناس جميعًا . ولا يمارى فى الحق أو يحيد عنه التماسًا لرضا من هو أقوى منهم ، أو مجاملة لقريب أو صديق . ومثل هذا الإنسان المؤمن يكون دائمًا فى رعاية الله وحمايته وإن سخط عليه الناس وتوعدوه ، فهو غنى بالله عن خلقه ، عزيز بجاهه الذى لا يطاوله جاه ، قوى بسلطانه الذى يقهر كل سلطان .

والمؤمن الذى يبلغ هذه المرتبة من الإيمان بالله ، لا يبلغها إلا بعد أن يروض نفسه على الصبر والمجاهدة ، وإدراك قيمته الحقيقية فى هذه الحياة وقيمة الآخرين ، والتمسك بحبل الله القوى المتين .

والتماس رضا الله إنما يكون بالتزام حدوده ، وأداء فرائضه ، والجهاد فى

سبيله ، والتقرب إليه بصالح الأعمال . وهذه كلها وسائل تحتاج إلى إرادة قوية ، وبصيرة واعية ، ونفس زكية ، لأنها وسائل تقوم على المجاهدة والعزيمة والبذل ، وهي صفات لا يطيقها إلا من راض نفسه على احتمال أعبائها . وهؤلاء قد يكونون قلة في المجتمع بين سواد الناس ، ولكنهم قلة قوية قادرة ، تثبت على الحق فلا تضعف لها إرادة ، ولا تميل مع الأهواء حيث يميل الناس . ولقد أثنى الرسول ﷺ على أمثال هؤلاء فقال : طوبى للغرباء .

قيل : ومن الغرباء يارسول الله ؟ قال : « الذين يصلحون حين فساد الناس » .

ومن هنا كان أمثال هؤلاء « الملتزمين » عرضة للسخرية في المجتمعات التي لا تدين بمبادئهم ، ولا تلتزم بما تفرضه هذه المبادئ من حدود وقيود . وقد يتعرضون لما هو أشد من السخرية والاستهزاء ، قد يتعرضون للمطاردة والإيذاء ، كما تعرض الرسول والأنبياء من قبله ، وأصحاب المبادئ الإنسانية في سبيل أداء رسالاتهم لكثير من الأذى الذي وصل في حالات كثيرة إلى حد الموت .

(فَمَا وهَنوا[1] لما أصابهم في سبيل الله وماضعُفُوا وما استكانُوا واللهُ يُحبُّ الصَّابِرين)[2] .

وكان الله دائمًا مع رسله وأنبيائه والداعين إلى طريقه ، يؤيدهم بنصره ، ويكلؤهم[3] برعايته ، حتى تكون كلمة الله هي العليا . فقد ألقى القوم إبراهيم – عليه السلام – في النار ، فقال الله عز وجل :

---

(١) ضعفوا .

(٢) الآية ١٤٦ سورة آل عمران .

(٣) يحرسهم .

(يانار كُونى بردًا وسلامًا على إبراهيم)[1] .

وائتمر مشركو مكة بمحمد ﷺ ليقتلوه . وحين أوشكوا أن يكتشفوا مخبأه فى الغار نجاه الله من شرهم وحماه من كيدهم وكتب النصر لدينه .

(إلاَّ تنصُرُوهُ فَقَد نَصرهُ الله إذْ أخْرجه الَّذين كَفَرُوا ثانى اثْنَين إذْ هُمَا فى الغار إذْ يقولُ لصاحبه لا تحزَنْ إنَّ الله معنَا . فأنزل الله سكينَتَهُ عليه وأيَّده بجُنودٍ لَّم ترَوْهَا ، وجعل كَلمةَ الَّذين كَفَروا السُّفلَى وكَلمة الله هى العُلْيا والله عزيز حكيمٌ)[2] .

وما من داع إلى الحق أو مستمسك به إلا لقى فى سبيل دعوته واستمساكه بالحق كثيرًا من المعارضة والمناوأة والإيذاء . إنها ضريبة الإيمان بالحق والثبات عليه ، يؤديها المؤمن طيبة بها نفسه ، ليكون جديرًا بالمستوى الذى بلغه والذى يمتاز به على سائر الناس .

فإذا بلغ الإنسان فى جهاده مرتبة الشهادة فتلك أسمى المراتب ، إنه الامتحان الكبير الذى أعده الله للصفوة من عباده . يقول الله تعالى :

(... وليعْلَم اللهُ الَّذين آمنُوا ويتَّخذَ مِنْكُمْ شُهدَاء)[3] .

وقد يتعرض الإنسان فى حياته لمواقف تجعله فى حيرة بين التزام جانب الحق ولو أغضب الناس ، وبين مجاراتهم فى الباطل ولو أغضب ربه وتنكر لمبادئه . إن

---

(١) الآية ٦٩ سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٤٠ سورة التوبة .

(٣) الآية ١٤٠ سورة آل عمران .

الرسول ﷺ ينقذك من هذه الحيرة حيث يقول :

« مَن التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله تعالى مئونة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله تعالى إلى الناس » .

وحين تكون المقابلة والاختيار بين رضا الله بسخط الناس ، وبين رضا الناس بسخط الله ، فإنها تكون صفقة رابحة لمن يختار رضا الله عز وجل ولو سخط عليه الناس جميعًا . إنه بذلك يكون فى جانب الحق فلا يضيره أن يكون غيره على الباطل ، وإن الله ليغنيه عن الناس ويكفيه شرهم وأذاهم .

(إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عنِ الَّذِين آمَنُوا)(١) .

أما الذى يختار رضا الناس بسخط الله فتلك هى الصفقة الخاسرة ، وذلك هو الخسران المبين .

ذلك لأن الإنسان لا يملك لغيره نفعًا ولا ضرًّا ، إلا ما قدر الله أن يكون . يقول الرسول ﷺ :

« . . . واعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمعتْ عَلَى أَنْ ينْفَعُوكَ لَمْ ينْفَعُوكَ إِلَّا بشَىء قَدْ كَتَبهُ اللهُ لَكَ ، وإنِ اجتمعت على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك » .

وأنت حين تلتمس رضا أحد من أصحاب الجاه أو ذوى القربى بسخط الله ، فتجاريه فى الباطل ، وتؤدى له شهادة الزور ، وتشاركه فيما يقترفه من الآثام والمنكرات ، طمعًا فى جاهه أو ماله ، أو مجاملة له أو استحياء منه ، إنما تكون بذلك قد قطعت صلتك بالله ، وبعت نفسك لإنسان مثلك ، فإما أعطاك فهو يمن عليك العطاء ويستذل به كرامتك ، وإما حرمك فتكون قد خسرت نفسك

---

(١) الآية ٣٨ سورة الحج .

وخسرت ما كنت تطمع فيه من أعراض الحياة الزائلة .

وأنت حين تركن إلى أمثال هؤلاء فتقع معهم فيما يسخط الله التماسًا لرضاهم ، ثم تحين ساعة الحساب فى الدنيا أو فى الآخرة ، لن تجد من هؤلاء أحدًا إلى جوارك يحميك أو يدافع عنك ، مهما كان ذا جاه وسلطان ومال ، بل إنهم سرعان ما يتعدون عنك ويتبرءون منك ، ويقطعون ما بينك وبينهم من الروابط والأسباب .

(وَلَوْ يرى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يرونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ . إِذ تبرأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ورأَوُا الْعَذَابَ وتقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً[1] فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ، كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)[2] .

ويقول الله تعالى فى أمثال هؤلاء :

(الْأَخِلَّاءُ[3] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ)[4] .

ولقد يفرض عليك الواجب أن تنتصر لأخيك . نعم تنتصر له ولكن بالحق ، فلا تعينه على الظلم لتكتسب رضاه ، بل تمنعه عن الظلم وبذلك تنصره على هواء . قال ﷺ :

---

(١) رجعة إلى الدنيا .

(٢) الآيات من ١٦٥ إلى ١٦٧ سورة البقرة .

(٣) الأصدقاء .

(٤) الآية ٦٧ سورة الزخرف .

« انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا .

قيل : ننصره مظلومًا يارسول الله ، فكيف ننصره ظالمًا ؟

قال : تمنعه عن الظلم » .

ولقد بين الله عز وجل حدود الطاعة الواجبة لمن لهم حق الطاعة كالوالدين مثلا ، فلم يجعله حقًّا مطلقًا فى كل أمر من الأمور حتى فيما يغضب الله ، بل قيد هذا الحق بقيوده وربطه بحدوده . قال تعالى :

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ [1] وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ : أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ . وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [2] .

نعم ، لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، لأن الله أولى بالطاعة وأحق بأن تلتزم حدوده وتجتنب محارمه ويلتمس رضاه .

ولقد قال أبو بكر – رضى الله عنه – حين تولى الخلافة : « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

هذه المبادئ التى بينها الله ورسوله ، وسار عليها الخلفاء الراشدون والأئمة وأصحاب كل دعوة إلى الحق ، هى فى الواقع تكريم لكرامة الإنسان وتحرير

---

(١) ضعفًا متتابعًا فى حالات الحمل والوضع والنفاس والرضاعة .

(٢) الآيتان ١٤ ، ١٥ سورة لقمان .

لإرادته من أن تضعف أمام الشهوات والمغريات التى تخطف ببريقها القلوب والأبصار ، وتجتذب إليها ضعاف النفوس خوفًا أو طمعًا ، كما أنها حماية للإنسان من نفسه أن تميل بالباطل إلى قريب أو صديق .

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ [1] شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ) [2] .

فإذا التزم الإنسان العمل بهذه المبادئ ، وآثر رضا الله على رضا الناس ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وكان فى حمى الله القوى الغنى ، قويًّا بالله غنيًّا عن الناس . أما إذا آثر رضا الناس بسخط الله ، فإن الله يتخلى عنه ويدعه حيث أراد ، عالة على الناس أعطوه أو منعوه ، أكرموه أو أهانوه .

ومن وكله الله للناس قامت حياته على أساس واه لا يلبث أن ينهار ، وارتبط مصيره بمستقبل غير مأمون ولا مضمون ، لأن صاحب الجاه قد يذهب عنه جاهه :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) [3] .

ولأن صاحب المال قد يضيع ماله أو يبخل به بعد سخاء ، ولأن القوى قد تضعف قواه ، ولأن الصديق قد ينقلب إلى عدو . . وعندئذ يفقد الإنسان أسناده وتخيب آماله ، لأنه انصرف عن الخالق إلى المخلوقين ، وآثر رضا الناس على رضا الله فكان من الخاسرين .

---

(١) العدل .

(٢) الآية ١٣٥ سورة النساء .

(٣) الآية ١٤٠ سورة آل عمران .

١٩

أضمن لكم الجنة

« اضمنوا لى ستًّا من أنفسكم أضمن لكم الجنة : أصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا اؤتمنتم ، وغضوا أبصاركم ، واحفظوا فروجكم ، وكفوا أيديكم » .

فى هذا الحديث يعرض الرسول ﷺ ست خصال لو مارسها الإنسان وحافظ عليها ضمن الرسول أن يدخله الله الجنة . وهو أعظم جزاء يطمع فيه الإنسان ، وخير مآب ينقلب إليه بعد أن تنتهى حياته على هذه الأرض .

وحين يكون الرسول ﷺ هو الضامن وهو الكفيل فإنها ولا شك صفقة رابحة ، وميثاق قوى ، وجزاء مؤكد محتوم .

وأولى هذه الخصال الست : أن يكون كلامك مطابقًا للحقيقة لا تزييف فيه ولا تحريف ، إذا سئلت عن شىء أجبت بالصدق ، وإذا طلبت فى شهادة ذكرت

الحقيقة ، تقول الحق ولو على نفسك أو الأقربين ، ولا تتحدث إلا بما تعلم ، فلا تردد الشائعات وتكون بوقًا للأكاذيب .

ولقد قال الرسول ﷺ : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة . ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا . وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا » .

ذلك لأن الصدق أساس الفضائل ، كما أن الكذب مفتاح كثير من الرذائل .

ولقد جاء أعرابى إلى الرسول ﷺ يعرض عليه أن يدخل فى الإسلام ولكنه لا يستطيع أن يتخلى عن كثير من عاداته السيئة ، ومنها الكذب والسرقة وشرب الخمر وغير ذلك من الرذائل . فماذا كان موقف الرسول من هذا الأعرابى وعرضه العجيب . . ؟

لقد وافق الرسول ﷺ على طلب الأعرابى بشرط واحد . هو أن يعاهده على ترك الكذب . وفرح الأعرابى لأن الرسول لم يحرمه إلا من خصلة واحدة وترك له سائر الخصال . . وأسرع يبايعه على الإسلام . ويعاهده على ترك الكذب .

وبدأت التجربة فى حياة الأعرابى وقد ظن أنه حر طليق يمارس من عاداته السيئة ما يشاء إلا الكذب . وهمَّ أن يسرق ولكنه تذكر العهد الذى بينه وبين الرسول ، وقال فى نفسه : لو سألنى الرسول ﷺ هل سرقت ؟ فهل أصدق فيقيم علىَّ الحد ، أو أكذب وقد عاهدته على ترك الكذب ؟ فانصرف عن السرقة .

ومرة أخرى هم الأعرابى أن يشرب كأسًا من الخمر ، ولكنه أفاق لنفسه وهو يقول : لو سألنى الرسول – ﷺ – هل شربت خمرًا ؟ فهل أصدق فيقيم على الحد ، أو أكذب وقد عاهدته على ترك الكذب ؟ فانصرف عن شرب الخمر .

وهكذا كان كلما حاول أن يمارس عادة من عاداته السيئة ، تذكر العهد الذى

بينه وبين الرسول على ترك الكذب ، فيترك هذه العادة السيئة . حتى تخلص بترك الكذب من جميع ما كان يقترف من رذائل وسيئات . .

على أن هناك نوعًا من الكذب يجوز أن تمارسه . . وهو ما تقصد به إصلاح البين ، والتوفيق بين المتخاصمين . كأن تروى لأحدهما الكلمة الطيبة والنية الحسنة على لسان صاحبه ، فتهدأ بذلك حدة الخصومة فى نفسه ، وتتهيأ القلوب للتسامح والصفاء .

والخصلة الثانية التى ذكرها الرسول ﷺ فى حديثه وجعلها مما يؤهل الإنسان لدخول الجنة ، وهى الوفاء بالوعد ، إذا وعدت بشيء فلابد أن تفى به ، ذلك موقف الإنسان الذى يحترم كلمته ويحافظ على كرامته بين الناس ، إن هذا الوعد الذى تبذله ترتبط به عند الطرف الآخر مصلحة لا تتحقق إلا إذا وفيت بما وعدت ، فإذا أخلفت موعدك تعرض صاحبك لمتاعب أو مخاطر أنت المسئول عنها أمام ضميرك وأمام الناس .

فالصانع الذى يحدد موعدًا لإنجاز صنعته ، والمدين الذى يحدد موعدًا لأداء دينه ، والصديق الذى حدد موعدًا للقاء صديقه . . كل أولئك عليهم واجب الوفاء . ومن يعرف أنه لا يستطيع أن يفعل كان عليه ألا يرتبط بهذا الموعد ، وألا يصم نفسه بوصمة النفاق . فقد قال الرسول ﷺ : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » .

أما أداء الأمانة ، فهى ثالثة الخصال التى تدخل الجنة . والأمانة تشمل كثيرًا من الأمور : العمل الذى تؤجر عليه أمانة بين يديك ، أهلك وأولادك أمانة أنت راعيها ومسئول عنها . أجر العامل الذى تستخدمه أمانة يجب أن تؤديها قبل أن يجف عرقه . الوديعة التى استُحفِظْتَ عليها أمانة تحافظ عليها وتردها عند طلبها . أموال اليتامى أمانة فى ذمتك ترعاها حتى يبلغوا رشدهم ويأخذوا أموالهم . كلمة السر

يفضى بها إليك صاحبك أمانة تفرض عليك الكتمان ، إلا أن تكون كلمة شر وبغي وعدوان . . .

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا . . ﴾[1] .

ويقول تعالى فى وصف المؤمنين :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾[2] .

ويقول ﷺ : « لا إيمان لمن لا أمانة له » .

وأما الرابعة فهى غض البصر عن محارم الله . ألا ينظر الإنسان إلى ما لا يجوز كشفه من المرأة ، ولئن وقع بصره على شىء من ذلك فعليه أن يصرف بصره ولا يتبع النظرة بأخرى . . . إن له النظرة الأولى التى لم يستطع أن يتفاداها . أما بعد ذلك فهو انقياد للشهوة ومنزلق للفساد .

وغض البصر واجب كذلك بين المرء وجيرانه . لما يكون بينهما من تكاشف الأحوال ، ولقد تحدث الشاعر العربى القديم عن قانون الشرف والحفاظ على حقوق الجار حيث قال :

وَأَغُضُّ طرفى إنْ بَدَتْ لى جَارَتى
حَتَّى يُوَارِى جَارَتى مَأْوَاهَا

ولقد جعل الرسول ﷺ للطريق حقوقًا يجب أن يحافظ عليها من يضطره عمله أو مجلسه إلى أن يتخذ مكانه هناك . ومن هذه الحقوق غض البصر . . ولعل فى

---

(١) الآية ٥٨ سورة النساء .

(٢) الآية ٣٢ سورة المعارج .

ذلك ما ينبه الكثيرين إلى سوء ما يفعلون وهم يجلسون على أرصفة المقاهى يؤذون الرائحات والغاديات بالنظرة المسمومة والكلمة النابية .

لهذا كان غض البصر عن محارم الله ، مجاهدة للنفس عن الانزلاق وراء الشهوات ، وترفعًا عن التبذل والمجون ، وحماية لأعراض الناس ، ورعاية لآداب المجتمع .

وأما خامسة الخصال فهى حفظ الفروج : العفة والحصانة عند الرجل والمرأة . . المحافظة على كرامة الإنسانية فى الإنسان . . الطريق الشريف النظيف للحياة الزوجية الكريمة . . ولهذا كانت عقوبة التفريط فى ذلك وتعدى حدود الله عقوبة شديدة رادعة تصل إلى حد الرجم . وما استهان قوم بذلك إلا فشت فيهم الأمراض ، واختلطت الأنساب ، وانحلت روابط المجتمع ، وذلت كرامة الإنسان .

وأما الخصلة السادسة من الخصال التى ضمن الرسول أن يدخل صاحبها الجنة فهى فى قوله ﷺ « كفوا أيديكم » . ذلك أن يكف الإنسان يده عن الأذى وعما حرمه الله . أن يكون عمل يده للبناء لا للهدم ، لإماطة الأذى عن الطريق لا بإلقاء القمامة أمام أبواب الجيران . لمساعدة الضعيف لا لمدافعته . للبذل والعطاء لا للسلب والاغتصاب . للدفاع عن الحق لا للبغى والعدوان .

٢٠

ثلاث . . . يكرهها الله

إذا كانت هناك خصال يحبها الله ويجزى عليها بالجنة ، لما لها من الأثر الطيب فى حياة الفرد والمجتمع ، فإن هناك خصالا يكره الله أن يتصف بها الإنسان المؤمن . والله – جل شأنه – لا يكره للمؤمن إلا ما يعيبه وينقص من إيمانه ، ويجلب عليه وعلى المجتمع الضرر والشقاء .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله كره لكم ثلاثًا : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثر السؤال » .

إن الله يكره القيل والقال . . يكره أن ينقل المرء كلمة السوء ويذيعها بين الناس ، فيوقع هذا بذاك ، ويوغر[1] صدر الأخ على أخيه ، ويشيع الفاحشة فى المؤمنين ، فكم من كلمة تناقلتها الألسنة من فم إلى أذن ، يضيف إليها كل ناقل من

(١) يملؤه غيظًا وحقدًا .

تفسيره وتخيله ما يشاء حتى تبلغ الكلمة من تعنيه ، فتكون سببًا فى قطع الأرحام ، أو هدم الحياة الزوجية ، أو إشعال نار الفتنة بين الناس .

ولقد يسمع الإنسان فى أحد المجالس كلامًا تنزلق به الألسنة فى حق هذا أو ذاك ، وهنا تقضى عليه المروءة والأمانة بأن يكتم ما سمع ، فلا ينطلق بهذا الكلام يردده كالمذياع فى كل مكان . وقد قيل : « المجالس أمانة » .

والأمر الثانى الذى حذر الرسول منه هو إضاعة المال : فإن المال نعمة من نعم الله تقتضى الشكر ، والشكر إنما يكون برعاية هذه النعمة ، والمحافظة عليها وحسن استثمارها ، وإنفاقها فى وجوهها المشروعة .

والمحافظة على المال لا تكون بحبسه واكتنازه ، فما خلق المال إلا للتداول بين الناس ، وتحقيق النفع لهم عن طريق استثماره فى المشروعات النافعة ، وإنفاقه فى أوجه الخير . ولقد توعد الله الذين يكنزون المال ويحبسونه عن مصارفه بالعذاب الشديد .

كان الرسول ﷺ جالسًا فى المسجد حين جاء إليه رجل يسأله شيئًا ، فقال الرسول : اجلس ، فسيرزقك الله . ثم جاء ثان وثالث . وأقبل رجل ومعه أربع أواق من الفضة فقدمها بين يدى الرسول وقال له : يارسول الله ، إن هذه صدقة . فدعا الأول فأعطاه أوقية . ثم دعا الثانى فأعطاه أوقية . ثم دعا الثالث فأعطاه أوقية . وبقيت الأوقية الرابعة . فعرضها للقوم فما قام أحد . فلما كان الليل وضعها تحت رأسه وقد افترش عباءته وظل ساهرًا لا يطرق النوم جفنه ، فيقوم فيصلى ، ثم يرجع إلى فراشه فلا يستطيع النوم ، فيعود إلى صلاته . . فعل ذلك مرات عدة ، حتى ظنت به عائشة – رضى الله عنها – أمرًا فقالت له : يارسول الله ، هل بك شىء ؟ فقال : لا .

فقالت : أفجاءك أمر من الله ؟ قال : لا .

قالت : إنك صنعت منذ الليلة شيئًا لم تكن تفعله ، فأخرج الأوقية وقال لها : هذه التى فعلت بى ما ترين . إنى خشيت أن يقبضنى الله ولم أُمضها[1] .

أوقية من الفضة أقضت[2] مضجع الرسول ﷺ ، فظل ساهرًا يذود عن عينيه النوم ، لأنه يخشى أن يدركه الموت فى ليلته تلك قبل أن ينفق هذه الأوقية فى سبيل الله .

وإنفاق المال فى وجوهه المشروعة لا يعتبر مضيعة للمال ، ولكنه تنمية له يعود على صاحبه بالربح الحلال ، كما يعود على المجتمع بالمنفعة العامة التى يفيد منها جميع أفراده ومنهم صاحب المال نفسه .

ولقد حث الله على إنفاق المال فى مصارفه المشروعة ، ووعد الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله بأن يرد إليهم ما أنفقوا أضعافًا مضاعفة . وضرب لذلك مثلا فقال سبحانه وتعالى :

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)[3] .

وإن فى قصة عبد الرحمن بن عوف – رضى الله عنه – لمثلا رائعًا على ما يصيب المنفق فى سبيل الله من بركة فى الرزق وزيادة فى المال . فقد هاجر عبد الرحمن ابن عوف إلى المدينة فقيرًا لا يملك شيئًا ، فآخى الرسول ﷺ بينه وبين سعد

---

(١) أنفقها .

(٢) جعلت فراشه كالشوك .

(٣) الآية ٢٦١ سورة البقرة .

ابن الربيع وكان من نقباء[1] الأنصار . فعرض عليه ابن الربيع أن يقاسمه أمواله وأن يطلق له أجمل زوجتيه . فقال له عبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك فى أهلك ومالك . وطلب منه أن يدله على السوق ، فباع واشترى وربح ، ومازال يحترف التجارة حتى صار من الأغنياء .

وكان عبد الرحمن بن عوف مع غناه هذا أجود ما يكون فى سبيل الله . تصدق مرة بنصف ماله . ثم تصدق بأربعين ألف دينار . وجهز مرة خمسمائة فرس فى إحدى الغزوات . ثم حمل على خمسمائة راحلة فى سبيل الله . وكان كلما أنفق مالا عوضه الله أضعاف ما أنفق .

ولقد قدمت لعبد الرحمن بن عوف سبعمائة راحلة تحمل البر والدقيق والطعام ، فلما دخلت المدينة أحدث دخولها ضجة عظيمة بين الناس . فبلغ عائشة – رضى الله عنها – ذلك فقالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : عبد الرحمن لا يدخل الجنة إلا حبوًا . فلما بلغه ما قالت عائشة ذهب إليها فقال : يا أمه ، إنى أشهدك أنها بأحمالها فى سبيل الله . إنه لا يريد أن يدخل الجنة حبوًا تثقل خطاه هذه الأموال ، ولهذا أنفقها فى سبيل الله ليدخل الجنة هرولة !

وقال طلحة بن عبد الله : كان أهل المدينة عيالا على عبد الرحمن بن عوف : ثلث يقرضهم ماله ، وثلث يقضى دينهم ، وثلث يصلهم ، أى يقدم لهم الهدايا والصلات .

هذا هو عبد الرحمن بن عوف الذى كانت حياته سخاء وعطاء وبذلا فى سبيل الله . أنفق من ماله ما أنفق فكان ماله يزيد مع الإنفاق أضعافًا مضاعفة ، حتى توفى عن ثلاثمائة وعشرين ألف دينار ، وثلاثة آلاف شاة ، وألف بعير ، ومائة فرس ، وأرض تزرع على عشرين بئرًا فى ظاهر المدينة .

---

(١) زعماء .

إنها الحبة المباركة التى تنبت سبعمائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء .

أما إضاعة المال التى نهى الرسول عنها ، والتى قال إنها إحدى ثلاث يكره الله أن يتصف بها المسلمون ، فهى إنفاق المال فى غير وجوهه المشروعة : الإسراف ، والمقامرة ، وسوء استثمار المال . . كل ذلك يودى إلى ضياعه ويورث صاحبه الفقر والندم .

وأما الثالثة وهى كثرة السؤال فإنها تعرض الإنسان للشدة بعد اليسر ، وللضيق بعد السعة . قال ﷺ : « إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم . فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه » .

وليس السؤال بقصد الاستزادة من العلم أمرًا مكروهًا ، ولكن السؤال المكروه هو ما يتجاوز الحد ، ويتحول إلى ما يشبه الفضول ، ويتسم بروح الجدل والتنطع . وقد يؤدى مثل هذا السؤال إلى جواب فيه ما يسوء .

يقول الله تعالى :

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)[1] .

ولقد كانت كثرة السؤال من الصفات الذميمة التى اتصفت بها بنو إسرائيل ، بدافع اللجاجة وسوء الأدب مع الله وأنبيائه .

(وإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا[2] ؟ قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالُوا

---

(١) الآية ١٠١ سورة المائدة .

(٢) هل تهزأ بنا .

ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ(١) وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ(٢) بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ؟ قَالَ إِنَّهُ يَقُول إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِين . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ . قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ(٣) تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ(٤) لَا شِيَةَ فِيهَا(٥) . قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ)(٦) .

وهكذا كانت كثرة سؤال بنى إسرائيل فى موضوع البقرة التى أمرهم الله بذبحها سببًا فى التشديد عليهم . فلو أنهم نفذوا أمر الله كما ألقى إليهم أول مرة لتقبل الله منهم أية بقرة يذبحونها . ولكنهم طبعوا على العناد والتنطع فظلوا يسألون موسى ويكثرون من السؤال . . وفى كل مرة يأتيهم جواب يضيق عليهم اختيار البقرة ويلزمهم بأن تكون ذات صفات معينة وقد كانوا فى حل لولا كثرة السؤال .

---

(١) كبيرة السن .

(٢) متوسطة السن .

(٣) لم تذلل بالعمل .

(٤) بريئة من العيوب .

(٥) لا لون فيها يخالف لون سائر جلدها .

(٦) الآيات ٦٧ – ٧١ سورة البقرة .

٢١

دع ما يريبك

والأمر الذى يريب هو الذى يجعل صاحبه فى موضع الريبة والتّهمة ، فيظن الناس به الظنون ، وهو الأمر الذى يثير فى نفس صاحبه الشك : أحق هو أم باطل خطأ أم صواب ولهذا يقول الرسول ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » . . ذلك أن من الأمور ما يفعله الإنسان بنية طيبة وقصد سليم ، ولكنه قد يثير الظنون ويبعث على التّهمة ولو بغير حق . ومثل هذه الأمور يجب على العاقل أن يجنب نفسه هذه المواقف . وألا يستهين بأسبابها اعتمادًا على حسن نيته وسلامة قصده ، حتى لا يلصق بنفسه تهمة هو منها برىء ولا يعرض غيره للوقوع فى سوء الظن والاتهام الباطل . قال ﷺ : « رحم الله امرأ جَبَّ الغيبة عن نفسه » . أى قطع أسباب الغيبة وأغلق أبوابها بالبعد عن مواقف الريبة والظنون .

فهذا الموظف الذى يستقبل صاحب الحاجة بجفاوة بالغة ، ويظهر له من

الاهتمام بأمره ما يتجاوز الحد المألوف ، ويتطوع لإنجاز حاجته عند هذا أو ذاك من زملائه الموظفين . . قد يكون حسن القصد فيما يفعل ، وقد يكون على علم بشدة الحاجة عند هذا المواطن ، ولكنه قد يطلق بذلك علامات الاستفهام من أنظار زملائه ، ويثير فى نفوسهم الريبة والشك فى دوافع هذه الحفاوة وهذا الاهتمام . فإذا لم يكن على علم بشدة الحاجة عند هذا المواطن ، وليست له علاقة تبرر هذا السلوك ، أثار كذلك الريبة والشك فى صاحب الحاجة ، وجعله يظن به الظنون .

وليس معنى هذا أن يمتنع الموظف عن حسن استقبال أصحاب الحاجة ، أو يتراخى فى إنجاز حاجتهم ، فإن هذا التصرف كالتصرف الأول . . كلاهما يتجاوز القصد وحد الاعتدال . وحسب الموظف والعامل وكل من يرتبط عمله بمصالح الجماهير ، أن يؤدى واجبه كما ينبغى : معاملة طيبة للناس وإنجاز للعمل فى موعده ، وأداء هذا العمل على وجهه الصحيح دون تفرقة فى هذا السلوك بين شخص وآخر. إن فعل كل عامل ذلك ، وكان هذا هو السلوك العام بين العاملين ، لم يكن العامل فى تصرفه الطيب هذا مع الناس موضع الظن والريبة ، ولم يجنح بعض أصحاب الحاجة إلى الأساليب المنحرفة فى قضاء حوائجهم .

وقد تكون أرملة جارك وبناته فى حاجة إلى من يرعى شئونهن ويقضى مصالحهن ، فتكثر من التردد عليهن لقضاء هذه المصالح ، وأنت تستشعر بذلك حق جارك عليك فى أهله . ولكن هذا الموقف الإنسانى الكريم إذا تجاوز حدوده أثار حولك وحول هذه الأسرة كثيرًا من الظنون ، فتسىء بذلك إلى نفسك وإلى أرملة جارك وبناته من حيث تريد الإحسان .

على أن للأمر وجهًا آخر يجدر أن يتدبره الإنسان إذا كان موقعه فى الطرف المقابل ، فكما يجب على الإنسان أن ينأى بنفسه عن مواقف الريبة والظنون ، كذلك يجب أن يكون الإنسان حسن الظن فيما يرى أو يسمع ، وألا يجرى وراء

الأوهام والشكوك ، أو تأويل بعض التصرفات والمواقف بدوافع مريبة . يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (١) . وذلك حتى لا يقع الإنسان فى إثم كبير ، وقد تؤدى ظنونه الباطلة إلى إلحاق الأذى بمن أساء بهم الظنون ، وإلى إشاعة الفاحشة وإشعال نار الفتنة بين الناس .

والظن يكون عادة صورة من نفس صاحبه ، فقد يرى الرجل موقفًا بين اثنين فيحسن الظن بهما ولا يرى فيه إلا خيرًا ، ويرى هذا الموقف نفسه رجل آخر فيسيء الظن بهما ولا يرى فيه إلا شرًّا . . ذلك لأن الأول طيب النفس سليم النية ، فذلك ينعكس على سلوكه وتصوره وظنه بالناس ، والآخر خبيث النفس مريض القلب ، فهو لا يرى فى الناس ولا يظن بهم إلا ما تعكسه نفسه الخبيثة وقلبه المريض ، من ظنون سيئة وأوهام سوداء .

ولقد توعد الله باللعنة والعذاب العظيم أمثال هؤلاء ممن يظنون ظن السوء ويفترون على الناس غير الحق ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمؤمِنَاتِ لُعِنُوا فِى الدُّنْيا والآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

---

(١) الآية ١٢ سورة الحجرات .

(٢) الآية ٢٣ سورة النور .

وقال تعالى :

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا)(١) .

وقال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)(٢) .

وإن من البعد عن الريبة فى النساء ، وتجنب مواقف التهمة والظنون ، أن تلتزم المرأة حدود الاعتدال والقصد فى الزينة ، وأن تكون جادة فى السير والحديث ، حتى لا تثير حولها الريبة أو تطمع فيها ضعاف النفوس . يقول الله تبارك وتعالى مخاطبًا أمهات المؤمنين وهن القدوة لسائر المؤمنات :

(يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ، فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا)(٣) .

ويقول عز وجل :

(يَأَيُّهَا النَّبِىُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ

---

(١) الآية ٥٨ سورة الأحزاب .

(٢) الآية ١٩ سورة النور .

(٣) الآية ٣٢ سورة الأحزاب .

عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) (١) .

وهناك معنى آخر من معانى الريبة ، فى حديث الرسول ﷺ ، حيث يقول : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » . هذا المعنى هو الشك والحيرة بين أمرين أيهما يأخذ الإنسان وأيهما يدع . والميزان الذى يرجح كفة على أخرى فى مثل هذا الموقف هو قول الرسول ﷺ : « الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى المشتبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى المشتبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه » .

نعم : الحلال بين والحرام بين ، كلاهما واضح تراه العين ويدركه العقل ويحسه القلب ، وإذا واجهت الإنسان أمور لا يعلم وجه الحق فيها تركها إلى ما يعلم وابتعد بنفسه عن هذه الأمور المشتبهات . إنه بذلك يصون دينه وعرضه . أما إذا استهان بالأمر وترك ما يعلم وتجاوز الحدود الواضحة إلى ما وراء هذه الحدود . فإنه قد لا يسلم من الوقوع فى الخطأ والإثم ، مثله فى ذلك مثل راعى الغنم الذى يترك الكلأ المباح فى الأودية والمراعى العامة ، ويحوم بغنمه حول المزارع فلا يأمن أن تنزل بها غنمه ، ويقع بسبب ذلك فى كثير من المشكلات .

ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه . فينبغى ألا يقترب الإنسان من هذا الحمى حتى لا يقع فيما حرم الله ، وألا يستهين بالأمور المشتبهات فيقع فى الإثم من حيث لا يدرى ، وخير له أن ينأى بنفسه عن ذلك كله ، وأن يدع ما تحيط به الريبة والشكوك إلى ما هو بيِّن واضح لا لبس فيه ولا غموض .

---

(١) الاية ٥٩ سورة الأحزاب .

وهناك مرتبة أعلى من ذلك ، وسلوك أكثر حرصًا وأسلم عاقبة ، وهو ما يفسره قول الرسول ﷺ : « لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة مما به بأس » وهناك ميزان آخر يستطيع الإنسان أن يفرق به بين الأمور المشتبهات وغيرها ، إنه ميزان يحمله كل إنسان فى حنايا صدره ، وهو ميزان لا يخطئ التقدير ولا يخدع صاحبه ، ذلك هو قلب الإنسان الذى بين جنبيه .

فإذا واجهت موقفًا كان عليك أن تختار فيه بين أمرين ، فاعرض الأمرين على قلبك واستمع إلى دقاته . . . إنه يعطيك الجواب الحاسم الصريح . . ما اطمأن إليه قلبك فهو الحق الذى ينبغى عليك اتباعه وإن خالف هواك ، وما اضطرب منه قلبك فهو الباطل الذى يجب عليك اجتنابه وإن هفت إليه نفسك .

وبذلك تنأى بنفسك عن مواطن الريبة والظنون إلى مواطن الحق واليقين .

٢٢

سماحة البيع والشراء

ما من إنسان إلا وتربطه بالناس علاقة بيع أو شراء . إنها المعاملة اليومية التى تجرى عليها حياة الناس وأرزاقهم ، وترتبط بها حاجاتهم ومعايشهم . ولهذا حرص الدين على أن يبين للناس المبادئ التى تقوم عليها هذه العلاقة الاجتماعية ، والآداب التى يجب أن يلتزمها الناس فى معاملاتهم المالية ، ليكون ذلك سبيلا إلى التعاون والمودة والثقة بين الناس .

يقول رسول الله ﷺ : « إن الله يحب سمحَ البيع ، سمح الشراء ، سمح القضاء » .

فمن كان سمحًا فى بيعه ، سمحًا فى شرائه ، سمحًا فى قضائه . . كان جديرًا بحب الله له . ومن أحبه الله نادت الملائكة فى الناس : أن الله يحب فلانًا فأحبوه ، فتقع محبته فى القلوب . .

والسماحة فى البيع أن يتخلق البائع بعدة خصال . . ولعل أولى هذه الخصال وأولاها هى أن يوفى الكيل والميزان ، مادام قد تقاضى الثمن على وزن أو كيل معلوم .

يقول الله تبارك وتعالى :

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ)[1] .

ويقول تعالى :

(وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)[2] .

ويقول تعالى :

(فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)[3] .

وتوعد الله من يخالف ذلك بالويل والعذاب الشديد فقال :

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ . الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)[4] .

ومن خصال السماحة فى البيع ألا يحتكر التاجر سلعته فيتحكم فى سعرها ويزيد فى ثمنها كما يريد ، مستغلاً فى ذلك حاجة الناس إلى الشراء . وحسب البائع من الربح ما يجزيه ، وما لا يرهق الناس ، وفيهم الغنى والفقير . إن البائع الذى يكتفى

---

(١) الآية ٣٥ سورة الإسراء .

(٢) الآية ٩ سورة الرحمن .

(٣) الآية ٨٥ سورة الأعراف .

(٤) الآيات ١ و٢ و٣ سورة المطففين .

بالربح القليل محتسباً ما زاد على ذلك عند الله ، إنما يدخر عند الله رصيداً ينمو أضعافاً مضاعفة .

ولقد ضرب عثمان بن عفان – رضى الله عنه – مثلا عالياً للسماحة فى هذا المعنى يذهب إلى أبعد مما يخطر على بال . . فقد أصاب الناس فى عهد أبى بكر – رضى الله عنه – قحط شديد ، فذهبوا إليه وقالوا : ياخليفةرسول الله إن السماء لم تمطر والأرض لم تنبت وقد توقع الناس الهلاك . . فماذا نصنع ؟

قال : انصرفوا واصبروا . . فإنى أرجو ألا تمسوا حتى يفرج الله عنكم .

فلما كان آخر النهار ، وردت الأنباء بأن عيراً لعثمان بن عفان قد قدمت من الشام وتصبح فى المدينة . فلما جاءت خرج الناس يتلقونها فإذا هى ألف بعير موسوقة براً وزيتاً وزبيباً ، فأناخت القافلة عند باب عثمان ، فلما جعل أحمالها فى داره جاء التجار وجرى بينه وبينهم حديث عجيب . . .

قال عثمان للتجار وقد تحلقوا حوله : ما تريدون ؟

قالوا : إنك لتعلم ما نريد . . بعنا من هذا الذى وصل إليك ، فإنك تعلم حاجة الناس إليه .

فقال عثمان : حباً وكرامة ، كم تربحوننى على شرائى ؟

قالوا : الدرهم درهمين . . قال : أُعطيت زيادة على هذا . . .

قالوا : أربعة دراهم . قال : أعطيت أكثر .

قالوا : نربحك خمسة . قال : أعطيت أكثر .

فقالوا : ما فى المدينة تجار غيرنا ، وما سبقنا أحد إليك ، فمن الذى أعطاك أكثر مما أعطينا ؟

قال : إن الله أعطانى بكل درهم عشرة ، فهل عندكم زيادة ؟

قالوا : لا . فقال : فإنى أشهد الله أنى جعلت ما حملت هذه العير صدقة على المساكين وفقراء المسلمين !

وإن من السماحة فى البيع ، أن يكون البائع صادقًا فى عرضه سلعته ، فلا يظهر منها الجانب الطيب ويخفى تحته الجانب المعيب ، أو يبيع السلعة المعيبة دون أن ينبه المشترى إلى ما فيها من عيب حتى يكون على بينة من أمره . ذلك من الغش الذى نهى عنه الرسول ﷺ حيث قال : « من غش فليس منا » .

ولقد قال الرسول ﷺ : « المتبايعان بالخيار مالم يتفرقا . فإن صدقا وبينا بورك فى بيعهما ، وإن كذبا وكتما فعسى أن يربحا ربحًا ويمحقا بركة بيعهما » .

ومن آداب البيع ألا يتخذ البائع من الحلف بالله وسيلة لترويج سلعته بالثمن الذى يريد ، قال ﷺ : « الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة » أى أن الحلف قد تؤدى إلى رواج السلعة ونفادها ، ولكنها تؤدى كذلك إلى ضياع البركة فيما عاد على صاحبها من ربح .

ولقد أقسم رجل بالله أنه يبيع سلعته بالثمن المفروض لا يزيد عليه شيئًا وكان كاذبًا فيما يقول ، فنزل قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِم ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُم فِى الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(١) .

هذا عن السماحة فى البيع ، فماذا عن السماحة فى الشراء ؟

إن سمح الشراء هو الذى يشترى السلعة بسعرها المناسب ، والذى لا يسرف فى

---

(١) الآية ٧٧ سورة آل عمران .

المساومة ، وإذا عرضت عليه سلعة لم يستغل حاجة صاحبها فيبخسه ثمنها .

وهو الذى لا يزيد على شراء أخيه ، فإن رأى رجلا يشترى سلعة تركه حتى يتم الشراء أو ينصرف دون ذلك ، فلا يدخل بين البائع والمشترى بثمن أكبر يعرضه ليستأثر بالسلعة لنفسه دون صاحبه ، أو يرفع ثمن السلعة بغير حق .

أما السماحة فى القضاء فهى مطلوبة من البائع والمشترى على السواء ، فإذا اشتريت شيئًا بدين إلى أجل معلوم وجب أن تؤدى الدين فى موعده فلا تماطل صاحب الدين فى القضاء ولا تخلف موعدك معه . وكما ذهبت إليه تطلب السلعة التى تحتاج إليها وليس معك ثمنها فأعطاك إياها ولم يحبسها عنك ، فكذلك يجب عليك أن تعود إليه لتؤدى له دينه وتقضى له حقه .

وعلى البائع أو المقترض كذلك أن يكون سمح القضاء عند استيفاء دينه . فإذا حل موعد أداء الدين ، ولم يؤد إليه المدين حقه نظر فيما يقدمه إليه من أعذار ، فإن كان صادقًا أمهله حتى يدبر أمره ويوفى بدينه . يقول الله تعالى :

(وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)(١) .

وقال ﷺ : « من أنظر معسرًا أو وضع عنه أظله الله عز وجل فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » .

وإن من السماحة أن يلتزم الإنسان فى طلب ما له من دين الأسلوب اللين فى القول والإسرار فى الطلب ، فلا يعنف فى اقتضاء الدين أو يفضح صاحبه بين الناس .

---

(١) الآية ٢٨٠ سورة البقرة .

جاء يهودى إلى رسول الله ﷺ يتقاضاه دينًا عليه ، فأغلظ اليهودى فى الطلب وقال للرسول : إنكم يابنى عبد المطلب مطل . فغضب عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – وهم أن يبطش باليهودى لجرأته على رسول الله ، ولكن الرسول ﷺ نهاه عن ذلك وقال له : كنا أحوج إلى غير هذا منك ياعمر . . تأمره بحسن التقاضى ، وتأمرنى بحسن القضاء . . وكان هذا الدين لم يحل موعده ، ومع ذلك قال الرسول ﷺ لعمر ما قال ، وزاد على ذلك بأن أمره أن يعطى اليهودى شيئًا من المال جزاء ما روّعه .

٢٣

كيف تكسب ود أخيك ؟

إن كسب المودة واستمالة القلوب ، من القيم الدينية التى تدعم روابط المجتمع ، وتشيع المحبة والتعاون بين الناس .

ولقد قال رسول الله ﷺ :

« ثلاث يصفين لك ود أخيك : تسلم عليه إذا لقيته ، وتوسع له فى المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه إليه » .

وبذلك أوجز الرسول أسباب المودة الصافية فى ثلاث خصال ، كل منها سهل يسير ، وهو مع ذلك عميق الأثر فى النفوس .

أولها أن تسلم على أخيك إذا لقيته ، هذه التحية الطيبة التى تصفى لك وده ، وتسكب فى نفسه الحب ، وتشيع حوله الطمأنينة والسلام . ولهذا كانت كلمة السلام هى أفضل تحية للمؤمنين حين يلقون ربهم يوم القيامة . قال الله تعالى :

:

(تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سلام)[1] .

وبهذه التحية تستقبلهم الملائكة يوم الفزع الأكبر :

(يَقُولُونَ : سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[2] .

وعندما يدخلون الجنة :

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا)[3] .

كلمة طيبة تصفى لك ود أخيك ، أن تقول له حين تلقاه : السلام عليكم ورحمة الله ، فيرد لك هذه التحية بمثلها أو أحسن منها . .

وللسلام آداب تزيد من جمال التحية وأثرها فى النفوس : منها أن يسلم القليل على الكثير ، والمار على القاعد ، والراكب على الماشى ، والصغير على الكبير ، ولقد مر أنس بن مالك – رضى الله عنه – على صبيان فسلم عليهم ، وقال : كان النبى ﷺ يفعل ذلك .

وسئل رسول الله ﷺ : أى الإسلام خير؟ قال : « تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » . ذلك أن إفشاء السلام لا ينبغى أن يقتصر على من تعرف من الناس ، لأنه إذا كان أثره فيمن تعرف أن يصفى لك وده ، فإنه

---

(١) الآية ٤٤ سورة الأحزاب .

(٢) الآية ٣٢ سورة النحل .

(٣) الآيتان ٢٥ و ٢٦ سورة الواقعة .

عند من لم تعرف يفتح لك قلبه ويكون سببًا من أسباب التعارف والتآلف ، وسبيلا إلى تكوين المجتمع الذى يسوده التعاطف والمودة والسلام .

ولقد يكون بين الإنسان وأخيه جفوة أو خصام ، وهنا تظهر قوة الخلق وسماحة النفس والتفاضل بين الناس . يقول الرسول ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيصد هذا ، ويصد هذا ، وخيرهما الذى يبدأ السلام » .

ذلك لأن البادئ بالسلام أقوى إرادة وأصفى نفسًا ، إنه قد تغلب على أسباب الخصومة ودواعى القطيعة ، فقابل الإساءة بالإحسان إن كان قد أسىء إليه ، أو سعى إلى طلب الصفح إن كان هو الذى أساء إلى صاحبه . وعن طريق المبادأة بالتحية يلتقى الاثنان فى ظل المودة والسلام .

أما الخصلة الثانية التى أوصى بها الرسول ﷺ فهى أن توسع لأخيك فى المجلس . والله سبحانه وتعالى يقول :

(يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُم تَفَسَّحُوا فِى الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ)(١) .

إن من أسباب المودة أن تفسح لأخيك مكانًا إلى جوارك ، فلا تستأثر بالجلوس وهو واقف ، أو تستأثر بالجلوس على فراش وتتركه جالسًا على الأرض . إن ذلك ليس من الخلق الاجتماعى فى شىء . .

وتطالعنا هذه الصورة فى مجتمعنا الحاضر متمثلة فى مشكلة المواصلات وما يعانيه الناس وبخاصة الشيوخ والضعفة والنساء من عنت وإرهاق . الأمر الذى يجعل التفسح فى المجالس واجبًا يقتضيه تكافل المجتمع فى مواجهة هذه المشكلة .

قد يكون هذا الواقف فى المركبة العامة مثلا شيخًا كبيرًا أو سيدة تحمل طفلها ،

---

(١) الآية ١١ سورة المجادلة .

أو فتاة تتعرض لمتاعب الزحام ، فماذا يضيرك لو أفسحت إلى جانبك مكانًا تجلس فيه هذه السيدة أو الفتاة ، أو يستريح فيه هذا الشيخ الكبير؟

قد تقول إن المقعد مخصص لثلاثة ، نعم إنه لكذلك . ولكنه يتسع لأربعة ولا يضيق بهم إذا ما تفسحوا فى مجلسهم وانضم بعضهم إلى بعض .

وهل يكون هذا هو منطقك لو كنت أنت الواقف تعانى من رجة المركبة وشدة الزحام . وغيرك يجلس وقد تمدد فى المكان طولا وعرضًا وهو منتفخ الجسم والأوداج ؟

فى مثل هذا الموقف يتمثل حديث الرسول ﷺ على أروع صورة وأجمل توجيه حين يحث على أن يوسع الإنسان لأخيه فى المجلس ، وما يحدثه ذلك من أثر طيب فى النفوس ، يشيع المودة ويرسى تقاليد التعاطف والتعاون بين الناس .

وما تفعله أنت مع غيرك اليوم حين تفسح له مكانًا إلى جوارك ، بروح عطوف ونفس كريمة ، يفعله غيرك معك اليوم أو غدًا ، وقد يفعله مع أبيك الشيخ أو أمك أو أختك ، فيرتد إليك جميلك ، وتجنى ثمار معروفك .

ولقد قال الرسول ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وهناك مرتبة أعلى من ذلك لمن أراد ، هى مرتبة الإيثار ، وقد أثنى الله على قوم فقال :

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[1] ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ[2] نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[3] .

---

(١) حاجة .

(٢) يحفظ من البخل .

(٣) الآية ٩ سورة الحشر .

ومع ذلك فهل كثير على الشاب القوى مثلا أن يتخلى عن مكانه للشيخ الكبير؟ إنها قد تكون دقائق وقد تكون ساعة أو بعض ساعة ، فماذا لو آثر هذا الشيخ الكبير بمكانه ، وهو منه فى مقام الوالد أو الجد؟

وصدق الله تعالى إذ يقول :

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

ذلك لأن الشح داء يصيب النفس بالجدب والغلظة . والشح لا يكون فى المال وحده ، ولكنه كذلك يكون فى الخلق والعاطفة . إن من الناس من يبخل بالكلمة الطيبة ، أو بالبسمة الرقيقة ، أو المجاملة التى لا تكلفه شيئًا أو لا تكلفه إلا اليسير ، لأن نفسه مريضة بداء الشح ، ولو تخلص من هذا الداء لطابت نفسه ولذاق لذة العطاء والسخاء ولو بالكلمة الطيبة أو البسمة الرقيقة .

وأما ثالثة الخصال التى تصفى لك ود أخيك ، فهى أن تدعوه بأحب أسمائه إليه . إن الرسول ﷺ يتحرى لك الأسباب التى تكسب بها قلب أخيك ، وتقوى بها رابطة المحبة بينك وبينه ، ومن هذه الأسباب أن تدعوه بأحب أسمائه إليه . فلا تناديه بصفة تذكره بعاهة فيه ، أو بلقب يكرهه . إن ذلك يؤذى شعوره ويثير فى نفسه الحقد والمرارة والكراهية لك وللمجتمع .

وإنما يجب أن تدعوه بما يشعره بالمودة كأن تناديه : ياأبا فلان ، إثارة لعاطفة الأبوة الحبيبة إلى نفسه ، أو تدعوه بما يشعره بالتكريم كأن تناديه بلقبه العلمى أو الفنى ، أو بما ينتظره من هذه الألقاب ، تقديرًا لمكانته ، وإشادة بفضله ، أو إثارة لمشاعر الطموح وحفزًا للهمة عند من لا يزالون على الطريق .

إنها التحية الطيبة التى تلقى بها أخاك فينفتح لك قلبه ، والمجاملة الكريمة تفسح له بها مكانًا إلى جوارك فينفسح بينكما مجال الحب والإخاء ، والنداء الجميل تعزف به على سمعه أحب الأسماء .

٢٤

أحب الأعمال بعد الفرائض

« أحب الأعمال إلى الله بعد أداء الفرائض ، إدخال السرور على المسلم » .

وهذا الحديث النبوى يبدأ بالإشارة إلى الفرائض الدينية ، ويقول إن أداء هذه الفرائض أحب الأعمال إلى الله ، وذلك لأن هذه الفرائض التى شرعها الله إنما تستهدف تحقيق معنى وجود الإنسان فى هذه الحياة ، والله تبارك وتعالى يقول :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والْإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ)[1] .

كما تستهدف هذه الفرائض توثيق صلة الإنسان بربه وتصحيح اتجاهه إلى الله ، وتقنين سلوكه فى الحياة ، وبذلك يكون له ميزانه فى نفسه يعرف به ما يحل وما يحرم ، ويكون رقيبًا على نفسه فى كل ما يقول أو يعمل .

---

(١) الآية ٥٦ سورة الذاريات .

وكذلك فإن هذه الفرائض تجمع من الأعمال الصالحة ، وتحقق من الآثار الطيبة فى سلوك الإنسان وحركة المجتمع أعظم قدر وأوفى نصيب ، إنها تضع للإنسان منهجًا تصلح به حياته ، وتقوم علاقته بالله وبالناس على أسس قوية ودعائم راسخة من الإخلاص والتعاون على البر والتقوى . وبذلك تتحقق سعادة الفرد وسعادة المجتمع الذى يعيش فيه .

فما من فريضة يتعبد بها الإنسان لله تعالى إلا عادت على الإنسان ثمرتها ، وكان هو المقصود بالإفادة منها ، فإن الله تعالى غنى على العالمين ، لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه . يقول الله تبارك وتعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) [1] .

ولهذا كان أداء الفرائض أحب الأعمال إلى الله ، وأرفعها منزلة عنده ، وأجدرها بالرضا والقبول ، ثم تجىء بعد ذلك أعمال لها المنزلة الكبرى والثواب العظيم والميزة على سائر الأعمال ، ومنها فى هذا الحديث النبوى الشريف : إدخال السرور على المسلم .

وذلك لأن الإسلام يحتفل بالحياة ، ويحرص على أن يوفر للناس فيها أسباب السعادة ، وأن يتيح لهم الاستمتاع بزينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، وأن يدخل على أنفسهم البهجة والسرور فى غير مأثم ولا خروج على حدود القصد والاعتدال .

ولما كانت الحياة متعددة الجوانب ، فيها ما يبعث على البهجة والسرور ، وفيها ما يثير الحزن والقلق ، فإن الإنسان فى حياته معرض لهذا وذاك ، وعلى قدر تماسكه

---

(١) الآية ١٥ سورة الجاثية .

ونظرته الشاملة للأمور تكون مواجهته لما يصيبه من هموم الحياة ، على أن الإنسان لا يستطيع وحده أن يواجه هذه الهموم ، فهو فى حاجة إلى من يواسيه فى محنته ، ويشجعه إذا فترت همته ، ويبعث فى نفسه نور الأمل إذا أطبقت عليه ظلمات اليأس ، ويرد إلى قلبه خفقات السعادة ، وإلى وجهه طلاقة الفرح والسرور ، ولهذا كان إدخال السرور على المسلم عملا ترقى مرتبته إلى هذا المستوى العالى بعد أداء الفرائض وهى أعظم الأعمال وأحبها إلى الله .

ومن ذلك أن المسلم قد يخطئ ، فتزل قدمه وينحرف عن سواء السبيل ، كأن يقترف ذنبًا أو يرتكب معصية ، وعندما يستيقظ ضميره يستشعر فداحة الذنب وسوء العاقبة ، فتسود الدنيا فى عينيه ، ويستولى اليأس على قلبه ، وقد يحمله ذلك على الانغماس فى الخطايا والذنوب مادام لا يجد أمامه طريقًا للنجاة ولا يتشوف بصيصًا من الأمل .

فما هو الواجب عليك نحو أخيك المسلم وهو يعانى هذه المحنة ويتعرض لهذا البلاء ؟ هل تفتح عليه أبواب جهنم وتصب فى أذنيه وقلبه آيات العذاب والوعيد ، وبذلك تزيده عذابًا على عذابه وتلقيه فى غيابات اليأس والقنوط . أم تفتح أمامه أبواب الجنة وتسكب فى روحه آيات الرحمة والمغفرة ، وبذلك تدخل السرور على نفسه ، وتنقذه من ذل المعصية إلى عز الطاعة ، ومن لجة الخطيئة إلى شاطئ التوبة ، ومن ظلام اليأس إلى نور الأمل والرجاء ؟

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا[1] مِنْ

---

(١) تيأسوا .

رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[1] .

إنها دعوة مطلقة إلى ساحة الرحمة والغفران ، لكل من يستشعر الندم ويقبل على الله بقلب سليم .

ويقول الرسول ﷺ : لَلّهُ أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلا وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، فطلبها . . حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت . . ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده عليها زاده . . طعامه وشرابه . . فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده .

وتلك بشرى من الرسول ﷺ تغمر القلب بالسرور وتملأ النفس بهجة وسعادة ، تحملها إلى أخيك المسلم وهو يعانى آلام محنته ، ويتقلب على أشواك حيرته ، فإذا هو بهذه البشرى سعيد كل السعادة ، كأنما انفتح له بها باب من أبواب الجنة . وقد كان على شفا حفرة من النار .

وصورة أخرى من صور إدخال السرور على المسلم ، كان أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه - فى جولة خلال الديار متنكرًا تحت جنح الظلام ، ليتعرف عن كثب أحوال المسلمين ، فترامى إلى سمعه أصوات صبية يبكون ، فطرق الباب فإذا امرأة تفتح له ، فيسلم عليها ثم يقول :

ما بال هؤلاء الصبية يبكون ؟

فتجيب : إنهم جياع وليس عندى ما أطعمهم به .

فيقول : وما هذا الذى توقدين عليه فى القدر ؟

---

(١) الآية ٥٣ سورة الزمر .

فتجيب : ماء وحصى . . أعللهم به حتى يناموا . الله بيننا وبين عمر .
ويفزع عمر من هذه الكلمة فيقول : وما يدرى عمر بكم ياأختاه ؟
فتجيب المرأة : عجبًا . . يتولى أمرنا ويغفل عنا !

وبهذه الكلمات تحولت النار التى تحت القدر إلى قلب عمر ، وتحولت دموع الأطفال الجياع كذلك إلى قلبه ، لا لتطفئ هذه النار ولكن لتزيدها اشتعالاً . . فعاد مسرعًا إلى بيت المال ، وحمل على كتفه ما استطاع من دقيق وسمن وعسل ، ورجع إلى المرأة فجلس يساعدها فى إعداد الطعام ، وإن الدخان ليتخلل لحيته وهو يعالج النار حتى نضج الطعام ، ولم يغادر الدار إلا بعد أن أكل الصبية حتى شبعوا ، ثم أخذوا بعد شبعهم يتضاحكون .

وقالت المرأة لهذا الطارق الكريم وهى تودعه : جزاك الله خيرًا . أنت أولى بهذا الأمر من عمر .

وابتسم أمير المؤمنين ، فقد ردت إليه هذه المرأة اعتباره وهى لا تدرى ، وكانت ابتسامته كذلك انعكاسًا للسرور الذى أدخله على قلب هذه المرأة الفقيرة وأطفالها الجياع . وما أشرق الصباح حتى كان لهذه الأسرة راتب مقرر من بيت المال .

هذا ، وإن الأبواب التى يدخل منها السرور على المسلم لكثيرة ، وإنها لميسرة لكل من أراد . . أن تلقى أخاك المسلم بوجه طلق ، أن تحمل إليه بشرى تشرح صدره ، أن تسعى فى قضاء حاجته . أن تعوده فى مرضه ، أن تتفقده إذا غاب عنك ، أن تهدى إليه وتتقبل هديته . . كل هذه أبواب يدخل منها السرور على المسلم ، فيهش لها قلبه ، وينشرح صدره ، وتبتهج نفسه ، وتطيب روحه ، وتخف عنه أثقال الحياة وهموم العيش ، ويستشعر الرضا والسعادة فى مجتمع يتبادل أفراده هذه المعانى الجميلة والمشاعر الكريمة .

٢٥

قول معروف . . .

قال رسول الله ﷺ :

« لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » .

وفى هذا الحديث الشريف تعميق لمعنى المعروف فى النفوس ، بحيث يكون طبيعة للإنسان وسجية من سجاياه ، يجرى منه فى سماحة ويسر لا تكلف فيه ولا معاناة . ذلك لأن المعروف حركة نفسية قبل أن يكون عملا ماديًّا ، وقيمته فى دوافعه وأهدافه لا فى حجمه وصورته .

يقول الله تبارك وتعالى :

(قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى) [١]

---

(١) الآية ٢٦٣ سورة البقرة .

فإذا استقر هذا المعنى فى النفوس لم يثقل عليها أداء المعروف لأنه لن يكلفها ما لا تطيق ، بل إنه بذلك يساعدها على أن يكون أداء المعروف حركة طبيعية ووظيفة سلوكية تؤديها استجابة للفطرة السليمة ، كما تؤدى الزهرة وظيفتها حين تمتع الأنظار بألوانها البهيجة وتنعش النفوس بعطرها الفواح .

ولهذا نهى الرسول ﷺ عن أن يتكلف الإنسان لضيفه فيما يقدم له من طعام ، لأن التكلف لا تطيقه النفوس ولا صبر لها على احتماله إذا ما تكررت أسبابه ، وبذلك يضيق الإنسان بضيفه ويقع التباعد والتقاطع بين الناس .

والمعروف باب من أبواب الخير يسره الله لعباده ، وإن منه بذل الصدقة بمعناها الإنسانى الواسع العميق ، الذى لا يقتصر على الغنى دون الفقير ، ولا على القادر دون العاجز ، ولا على القوى دون الضعيف . . بل الجميع ميسرة أمامهم أبواب هذا الخير ، متاحة لهم أسبابه .

يقول رسول الله ﷺ :

« ليس من نفس ابن آدم إلا عليها صدقة فى كل يوم طلعت فيه الشمس . قيل يارسول الله ، من أين لنا صدقة نتصدق بها ؟ فقال : إن أبواب الخير لكثيرة : التسبيح والتحميد ، والتهليل والتكبير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتميط[1] الأذى عن الطريق ، وتسمع الأصم ، وتهدى الأعمى ، وتدل المستدل عن حاجته ، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث ، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف . . فهذا كله صدقة منك على نفسك . وتبسمك فى وجه أخيك صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة » .

وهذا المعنى يعطى الصدقة مفهومًا يحقق كرامة الإنسان ، ويشعره العزة والقدرة

---

(١) تبعد .

على العطاء ، وأنه إن كانت تنقصه بعض الأسباب ، فإنه يملك أسبابًا أخرى يفيد بها المجتمع ويرد له بها ما عليه من دين . فليست الصدقة إذن ، وليس بذل المعروف ، أمرًا يملكه الغنى دون الفقير ويجود به عليه ، أو يستأثر به القوى ويتفضل به على الضعيف ، ولكن أفراد المجتمع فيه سواء ، كل منهم يستطيع أن يعطى وأن يكون صاحب اليد العليا ، وأن تكون له مواقف إيجابية نافعة بين الناس ، إذا ما طرق أبواب الخير والمعروف وإنها لكثيرة . . وهل يعجز إنسان – مثلا – مهما يكن أمره عن أن يميط الأذى عن الطريق ، أو أن يدل المستدل عن حاجته ، أو أن يلقى أخاه بوجه طلق ؟

إن إماطة الأذى عن الطريق وهى عمل يسير ، قد تحفظ على إنسان حياته ، أو تحول دون تعرضه لأذى شديد . وكم من حوادث أليمة تقع بسبب عثرة قدم ، فهل يستهين الإنسان بالحجر أو العظم أو قشرة الموز يرفعها عن الطريق ، فينقذ حياة أو يجنب إنسانًا مزالق الخطر ، وهل يحقر هذا المعروف لأنه لم يكلفه شيئًا من الجهد والمال ؟

وأن تلقى أخاك بكلمة طيبة ووجه طلق[1] أمر يسير ، ولكن أثره فى نفس أخيك أثر عظيم . إنه يفتح لك مغاليق قلبه ، فإن كان بينك وبينه مودة ازدادت هذه المودة عمقًا وازدهارًا ، وإن كان بينك وبينه جفوة أو عداء فعلت الكلمة الطيبة والبسمة الحانية فعلها فى نفسه :

﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[2] .

---

(١) منبسط .

(٢) الآية ٣٤ سورة فصلت .

ويقول الله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ . تُؤْتِى أُكُلَهَا كُل حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)(١) .

فلا يحقرن أحد كلمة ينطق بها لسانه ، أو بسمة تنفرج عنها شفتاه . . يكون لها من الأثر الطيب فى النفوس ما لا يبلغه بوسائل أخرى قد تكون أعظم قدرًا وأعز منالا .

ألا وإن من الأدب النبوى أن يكون هذا سلوكك حتى مع من تسيء الظن به أو تعرف عنه السوء ، لأنك إنما تعامله بما يليق بك لا بما يستحق . فقد روت السيدة عائشة – رضى الله عنها – أن رجلا استأذن على النبى ﷺ فلما رآه مقبلا قال : « بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة . فلما جلس تطلق النبى ﷺ فى وجهه وانبسط إليه !

فلما انطلق الرجل قالت له عائشة : يارسول الله ، حين رأيت الرجل قلت كذا وكذا ، ثم تطلقت فى وجهه وانبسطت إليه !

فقال رسول الله ﷺ :

ياعائشة ، متى عَهِدْتِنِى فحاشًا ؟ إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره » .

هذا هو المعروف ، وذلك أثره فى النفوس . ولهذا كان الأمر بالمعروف والدعوة إليه واجبًا على كل مسلم يحب للناس ما يحب لنفسه ، ويرجو لهم مثل ما يرجو

---

(١) الآيتان ٢٤ و ٢٥ سورة إبراهيم .

لنفسه من الخير . والأمر بالمعروف يقتضى النهى عن المنكر . وكلاهما واجب يفرضه صالح المجتمع . يقول الرسول ﷺ : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » .

وإذا كان الرسول ﷺ قد حث على أداء المعروف بين الإنسان وأخيه الإنسان حتى فى الأمور اليسيرة ، لتتكون عنده عادة الخير ، وتفيض فى نفسه ينابيع البر ، ولا تتوقف فى نفسه حركة المعروف . . فإن هذه المشاعر الخيرة حين تصبح طبيعة فى الإنسان تمتد فيوضها فتشمل كل ما يحيط به ، فإذا هو يتعاطف مع كل كائن حى . وفى هذا أيضًا لا يحقرن الإنسان ما يبذل من معروف . إن قطرات من الماء تقدمها إلى حيوان يلهث من العطش عمل يسير ولكن ثوابه يتضاعف عند الله حتى ليوازى ثواب أعظم الأعمال . . . قال رسول الله ﷺ : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ثم خرج ، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له » .

قالوا : يارسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجرًا ؟ فقال : « فى كل ذات كبد رطبة أجر » .

وليس أروع من هذه الصورة التى يمثلها هذا الحديث النبوى الشريف . . إن حفنة من الماء قدمها الرجل إلى هذا الكلب الذى كان يلهث من شدة العطش ، رفعته إلى هذه المنزلة العالية وذلك المقام المحمود . وهل هناك أسمى وأكرم من أن يكون الإنسان موضع الشكر والحمد ، وأن يكون الله – جل جلاله – هو الشاكر الحميد !

وهناك من المعروف ما يؤديه الإنسان ولا يكاد يحس به ، ولكن أجره عند الله مكفول . . إنه ثمرة دائمة من ثمرات عمله الصالح . ومن ذلك ما جاء فى الحديث

النبوى الشريف حيث يقول : « ما من مسلم يزرع زرعًا أو يغرس غرسًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة » .

فما أكثر وما أيسر وجوه المعروف ، وما أعظم ما يجزى به الإنسان على معروفه ، ولو كانت قطرات ماء تبل بها ظمأ حيوان ، أو سنبلة قمح تأكل منها الطير ، أو كلمة طيبة أو بسمة حانية تلقى بها أخاك . .

٢٦

شريعة الحرب والسلام

الحرب من شريعة الحياة ، منذ هبط الإنسان الأول على هذه الأرض وقد ركبت فيه غرائز الخير والشر. وكأن الملائكة قد ألهموا هذه الصورة للبشرية فى حوارهم مع الله ، تبارك وتعالى :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً . قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ، وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ : إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)[1] .

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى

---

(١) الآية ٣٠ سورة البقرة .

وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) [1] .

وهبط مع آدم وحواء عدوهما اللدود إبليس ، بعد أن طرد من الجنة وحقت عليه اللعنة إلى يوم القيامة . فقال يخاطب الله – تبارك وتعالى – متوعداً آدم وذريته :

(لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) [2] .

فيقول سبحانه :

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) [3] .

ومنذ ذلك التاريخ الأول للبشرية على هذه الأرض ، بدأ الصراع بين بنى آدم بعضهم وبعض ، وبدأ الصراع بينهم وبين إبليس فيما يزين لهم من أسباب الغواية . وما يثير فى نفوسهم من نزغات الشر والعدوان .

---

(١) الآيات ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ سورة البقرة .

(٢) الآيتان ٣٩ و ٤٠ سورة الحجر .

(٣) الآية ٤٢ سورة الحجر .

ومن عجب أن أول جريمة قتل بين بنى آدم قابيل وهابيل ، إنما كانت على طريق العبادة ، حين قدم كل منهما « قُربانًا » لله ، فَتُقبلَ من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، وهذا يشير إلى معنى دقيق ، هو التحذير من مداخل الشر حتى فى مجال الخير .

يقول القرطبى : إن قابيل تقرب بحزمة من سنبل ، لأنه كان صاحب زرع ، واختارها من أردأ زرعه ، ثم إنه وجد فيها سنبلة طيبة ففركها وأكلها .

وكان قربان هابيل كبشًا لأنه كان صاحب غنم ، أخذه من أجود غنمه .

فتقبل الله قربان هابيل ، ولم يتقبل قربان قابيل .

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ ، إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ . قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ، قَالَ : إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ، إِنِّى أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ . فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ، فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ)[1] .

هى إذن بذور الحرب استقرت منذ بداية البشرية على هذه الأرض ، وبما ركب فى النفوس من نزعات الخير ونزغات الشر ، وهذا الصراع الطويل الممتد بين الحق والباطل ، بين الظلم والعدل ، بين القوى والضعيف ، سواء فى ذلك بين

---

(١) الآيات من ٢٧ إلى ٣٠ سورة المائدة .

الأفراد بعضهم بعضًا ، أو بين الحكام والرعية ، أو بين الدول والشعوب .

فالحرب إذن من شريعة الحياة . إذا لم يشنها الإنسان باغيًا معتديًا على غيره ، كان عليه أن يخوضها لرد البغى ودحر العدوان .

ومن هنا تختلف سياسة الحرب ومشروعية الجهاد .

ولقد وعت ذاكرة البشرية على امتداد عصور التاريخ ، وما تزال تشهد على مسارح الحياة فى مختلف أرجاء الأرض ، حروبًا ومعارك لا تنطفئ نارها ولا يخبو أوارها ، ولكنها تختلف فى بواعثها وأهدافها أيما اختلاف .

هناك حروب قامت - وماتزال - للسيطرة والتوسع والاستغلال ، وهناك حروب قامت - وماتزال - للتحرير وحماية الأوطان والأموال والأعراض .

هناك حروب قامت بين أصحاب العقيدة الواحدة لتغليب مذهب على آخر ، كالحروب التى قامت فى العصور الوسطى بين الطوائف المسيحية ، وكالمعارك التى تثور بين هذه الطوائف فى أيرلندا حتى الآن .

ومن ذلك أيضًا الحروب التى كانت تنشب بين الفرق والطوائف الإسلامية ، وللإسلام فى ذلك سياسته التى تقول :

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)[1] .

وهناك الحروب الاستعمارية التى شنها طغاة أوربا باسم « الصليب » للسيطرة على

---

(١) الآية ٩ سورة الحجرات

الأمة العربية مسلمين ومسيحيين .

وهناك الحروب التى شنها الاستعمار التركى باسم « الخلافة » على البلاد العربية واصطلى بنارها العرب ، المسلمون والمسيحيون على السواء .

وهناك الحروب المجنونة المدمرة التى شنها التتار والمغول وكادوا أن يقضوا بها على الحضارة الإنسانية ، والتى تشبهها إلى حد كبير الحروب النازية فى العصر الحديث .

وهناك الحروب العنصرية التى تشنها الصهيونية على العرب ، فهى بالغدر والتواطؤ والتآمر مع الاستعمار تستولى على فلسطين ، وتقوم بإبادة أهلها وتشريدهم واغتصاب أرضهم وديارهم ، ثم تشن الحرب على البلاد العربية المجاورة لتفسح مجالا لهجرة الملايين من يهود العالم وتحقيق حلمها العدوانى بإقامة دولة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات !

وهناك الحروب التى تشعلها الدول الاستعمارية والإمبريالية وتشجع عليها القوى العظمى لفرض سيطرتها على الشعوب واستغلال خيراتها واتخاذها مناطق نفوذ وأسواقًا لاستهلاك السلع والأفكار .

يقابل هذه وتلك حروب لها بواعث وأهداف أخرى تختلف عن هذه البواعث والأهداف .

حروب فى سبيل الدفاع عن العقيدة ، وتحرير الأرض ، واسترداد الحق ، وحماية المستضعفين ، وتحرير الضمير الإنسانى من سيطرة الطغاة ، وإقرار العدل والأمن والسلام .

كانت هذه الحروب على الأرض العربية فى صدر الإسلام ، بين الرسول ﷺ وأصحابه وبين كفار قريش وغيرهم من المشركين العرب ، وبينهم وبين يهود الجزيرة العربية ، حتى استقرت العقيدة وتطهر المجتمع العربى من أدران الشرك وأرجاس

الجاهلية ومفاسد اليهود وغدرهم ، وتحققت الحرية والأمن والعدالة والمساواة بين الناس .

ثم كانت بين الدولة الإسلامية وبين الطغاة المتجبرين فى فارس والروم ، حتى تحررت قبائل العرب المتاخمة لهم ، كما تحررت شعوب أخرى فى آسيا وإفريقيا من سيطرة هؤلاء الطغاة ، ثم معارك أخرى على تعاقب العصور ضد الغزو المغولى والصليبى ، والاستعمار القديم والحديث ومعارك المقاومة والتحرير ضد الصهيونية التى تمثل أبشع صور العدوان على الأرض العربية .

وهناك حروب أخرى فى مواجهة العدوان الأجنبى فى كثير من دول العالم ، شعوب صغيرة تتحدى أعتى دول العالم بكل ما تملكه من قوى بشرية وموارد اقتصادية وأسلحة حديثة ، وأساطيل تعربد فى المحيطات والبحار ، وطائرات تصب الموت والدمار ليل نهار . وتفرض على هذا العدو الذى يريد أن يكون جباراً فى الأرض أن يدفع الثمن الغالى من أرواح رجاله وحطام طائراته .

هنا وهناك ، على امتداد التاريخ ، وعلى اتساع رقعة العالم ، قامت – ومازال – تقوم حروب . ولكنها حروب تختلف فى البواعث والأهداف . وسيظل هذا الاختلاف ما بقيت شريعة الحرب فى الحياة ، بل ما بقيت على هذه الأرض حياة . . .

٢٧
حتمية الجهاد

ومن هنا تتقرر حتمية الجهاد . .

لا للبغي والعدوان ، ولكن لرد البغي ودحر العدوان . .

(وَلَوْلَا دَفعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ، وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالمِينَ) (١) .

ويقول الله - تبارك وتعالى - :

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وَهُوَ كُرْهٌ لكُمْ ، وَعَسى أَنْ تكرَهُوا شيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شرٌّ لكُمْ ، واللهُ

---

(١) الآية ٢٥١ سورة البقرة .

يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)[1] .

ومن هنا تبدأ مشروعية القتال فى الإسلام :

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ . وَآتَوُا الزَّكَاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)[2] .

وهذه الآية الكريمة تحدد فى وضوح سياسة الحرب فى الإسلام ، وتجمل هذه السياسة فى كلمات قليلة تنتظم كل ما يتصل بها من مبادئ وأهداف .

— إن مشروعية القتال تبدأ حين يقع العدوان ، ويدخل فى ذلك بالضرورة أن تكون الأمة متأهبة للقتال ، ملتزمة بالجهاد ، حتى تستطيع أن ترد العدوان حين يقع ، أو تحول بذلك دون وقوعه .

يقول الله تبارك وتعالى :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ،

---

(١) الآية ٢١٦ سورة البقرة .

(٢) الآيات ٣٩ و ٤٠ و ٤١ سورة الحج .

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ)[1] .

– إن القتال ليس هدفه البغى والعدوان ، ولكن هدفه الدفاع عن الحرمات من أرض وعرض ومال وعقيدة ، وحماية أصحاب العقائد الدينية الأخرى كذلك من العدوان على معابدهم وشعائرهم .

– إن القتال على هذه الصورة انتصار لكلمة الله وشريعته ، وأن المؤمنين بالله الملتزمين لحدوده ، مكفول لهم النصر فيما يخوضون من معارك وحروب ، وقد يتحقق النصر للأمة وتتحقق مع النصر الشهادة لمن يصطفيهم الله لهذه المنزلة ، وهل تكون الشهادة بغير قتال ؟

– إن الغاية من القتال ، بعد الانتصار والتمكين فى الأرض ، ليس الانتقام ، ولا استرقاق الشعوب ، ولكن إقامة شعائر الدين ، وإقرار العدل والأمن والسلام .

ولقد ظل الرسول ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة ، يواجه هو وصحبه أشد ألوان الفتنة والعذاب ، دون أن يحمل سيفًا أو يأمر أصحابه بقتال .

ثلاث عشرة سنة لقى فيها من قريش ولقى أصحابه ما لا يطاق ، كان المستضعفون منهم يسامون العذاب كيًّا بالنار ، وضربًا بالحديد والأحجار ، وإلقاء على رمضاء مكة فى وقدة النهار ، وإن منهم من يدفع حياته ثمنًا لإصراره على التمسك بدينه فى مواجهة كل هذه التحديات .

ويتعرض الرسول ﷺ للسخرية والاستهزاء ، ثم للسب والإيذاء ، ويتعرض معه بنو هاشم للمقاطعة التامة ثلاث سنين يقضونها محصورين منبوذين فى شعاب مكة ، لا يكلمهم ولا يعاملهم ولا يصاهرهم أحد .

ويفر إلى الحبشة من لا يطيق صبرًا على هذه الحال ، فترسل قريش فى أثرهم

---

(١) الآية ٦٠ سورة الأنفال .

من يحاول الإيقاع بينهم وبين النجاشي ، وتطلب منه أن يسلم إليهم هؤلاء المهاجرين ، فيرد النجاشي وفد قريش مخذولين ، ويكرم وفادة من نزل بأرضه من المسلمين .

وإن من المؤمنين من كانت له فى الجاهلية عزة وعصبية ، فكيف يطيق الصبر على مثل هذا الهوان ؟

بل إن عامة الناس فى المجتمع العربى ، كانت تحملهم الأنفة والحمية على شن الحروب وخوض المعارك لأتفه الأسباب ، فكيف بهم يقبلون هذا الضيم وهم يسامون الخسف وسوء العذاب ؟

ذلك أن المنهج الإسلامى فى تربية النفوس كان يحرص على تأصيل فضيلة الصبر واحتمال المكاره فى سبيل العقيدة ، ويعد المؤمنين بالنصر حين يحين موعده ويتحتم لقاء العدو . وفى ذلك يقول الله – تبارك وتعالى – لرسوله الكريم :

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَق ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ)(١) .

وحين يشتد الأمر على المسلمين يذهب عبد الرحمن بن عوف وأصحاب له إلى الرسول ﷺ فيقولون له :

يانبى الله ، كنا فى عزة ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة .

فيجيب الرسول ﷺ :

« إنى أمرت بالعفو ، فلا تقاتلوا القوم » .

وكان ﷺ يقول : لم أومر بالقتال .

---

(١) الآية ٦٠ سورة الروم .

وهذا يدل على أن الأصل فى الإسلام العفو والسلام ، وأن القتال لم يؤذن به إلا بعد أن استنفد الرسول ﷺ كل وسائل الإقناع والمصابرة وطوال ثلاث عشرة سنة .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية دراسة فقهية مقارنة عن سياسة الحرب فى الإسلام ، ينتهى فيها إلى ترجيح رأى جمهور الأئمة مثل مالك وابن حنبل وأبى حنيفة وغيرهم ، على ما يقول به الشافعى وبعض أصحاب ابن حنبل ، وذلك فى قتال الكفار وأهل الكتاب .

إن الجمهور يرون أن الأصل فى مشروعية القتال هو الاعتداء ، وليس الكفر أو المخالفة فى العقيدة . ويستدل ابن تيمية على ذلك بكثير من الآيات ، مثل قوله تعالى :

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ، وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ)[1] .

ويقرر ابن تيمية بناء على ذلك أن الأصل فى علاقة المسلمين بغيرهم هو

---

(١) الآيات من ١٩٠ إلى ١٩٣ سورة البقرة .

السلم ، وأن القتال لا يكون إلا فى العدوان . وفى ذلك يقول :

– إذا كان القتال لأجل الحرب ، فكل من سالم ولم يحارب لا يقاتَل سواء أكان كتابيًّا أم كان مشركًا .

يقول الله ، تبارك وتعالى :

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) .

ويتطرق ابن تيمية إلى بيان أن اختلاف العقيدة لا يكون سببًا فى القتال ، مستدلاً بقوله تعالى :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (٢) .

ثم يقول :

« إنا لا نكره أحدًا على الإسلام ، ولو كان الكافر يقتل حتى يسلم لكان هذا أعظم الإكراه على الدين » .

يؤيد هذا موقف الرسول ﷺ من اليهود والنصارى فى جزيرة العرب . . فإنه حين قدم إلى المدينة وادع اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأمنهم على أموالهم ،

---

(١) الآيتان ٨ و ٩ سورة الممتحنة .

(٢) الآية ٢٥٦ سورة البقرة .

وظل وفيًا لعهده معهم حتى نقضوه .

وحين حضر وفد نصارى نجران إلى المدينة بعد أن دعاهم الرسول ﷺ للإسلام ، مكثوا فى ضيافته أيامًا وهم يجادلونه فى دعوته ، وظلوا مصرين على عقيدتهم ، ومع ذلك أكرمهم وسمح لهم بالصلاة فى مسجده ، ثم ودعوه وعادوا إلى بلادهم دون أن يدخلوا فى الإسلام .

وفى الفتوحات الإسلامية للشام ومصر وغيرهما ، أعطى المسلمون العهد لأهل هذه البلاد أن يظلوا على دينهم ، وكفلوا لهم حرية عبادتهم وحرمة معابدهم . . ومن دخل منهم فى الإسلام كان ذلك بمحض الرغبة والاقتناع .

بل إن الأمر ليتعدى معاملة أهل الكتاب إلى معاملة المشركين .

يقول الله ، تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ (١) .

هذا وإن الإسلام - حتى فى حالة القتال المشروع - لا يتعدى المقاتلين من الأعداء إلى غيرهم من الشيوخ والنساء والأطفال والمنقطعين للعبادة ، وهم الذين لا يشاركون قومهم فى القتال ، ولذلك كان من وصايا الرسول ﷺ للمقاتلين قوله :

« اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ، ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة ولا كبيرًا فانيًا ولا منعزلا بصومعته ، ولا تحرقوا نخلا ولا تقطعوا شجرًا ولا تهدموا بناء » .

---

(١) الآية ٦ سورة التوبة .

هذا إلا إذا اقتضت الضرورة الحربية ذلك وكان له ما يبرره . . فقد أمر الرسول ﷺ بقتل دريد بن الصمة فى « حنين » وكان شيخًا بلغ العشرين بعد المائة ، لأنه كان يشارك قومه القتال بالمشورة والرأى .

وكذلك أمر بتدمير بيوت بنى النضير وكانوا يتخذونها حصونًا للحرب « يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين » . . . بل إنه أمر بحرق مسجد الضرار ، وكان الذين بنوه يتخذونه مجتمعًا للفتنة والتآمر .

كما أمر عند حصار الطائف بقطع كروم ثقيف . . على أن الغالب فى مثل ذلك هو قطع الثمار وليس الأشجار .

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ ﴾ (١) .

لأن المقصود هو حرمان العدو من الثمار وهى بعض مصادر قوته فى الحرب ، وليس القضاء على النخيل والأشجار وهى من مصادر الرزق فى سائر الأوقات .

والإسلام لم يكن يستهدف فى حروبه على مشارف الجزيرة العربية وفيما وراءها ، إلا القضاء على الطغاة المتجبرين من ملوك الفرس وقياصرة الروم ، وتحرير ما تحت أيديهم من الشعوب ، ولهذا كان القتال مقصورًا على الجيوش المتحاربة دون التعرض لعامة الناس بأى سوء . ومن أجل ذلك كانت هذه الشعوب تعين الجيوش الإسلامية على حكوماتها الباغية ، وتمهد لها أسباب النصر ليتحقق لها هدف التحرير وحماية العقيدة وإرساء دعائم الأمن والسلام .

وكان ﷺ إذا خرج للقتال يتوجه إلى الله بهذا الدعاء :

---

(١) الآية ٥ سورة الحشر .

« اللهم أنا عبدك ، وهم عبادك ، نواصينا ونواصيهم بيدك ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم » .

إن الصورة التى يتمثلها الرسول ﷺ فى مواجهة هؤلاء الأعداء – المعتدين – هى أنهم مثله عباد الله .

إنه يستشعر فى موقفه هذا الأخوة الإنسانية التى تجمعه بهؤلاء الأعداء ويحتكم فى أمرهم إلى الله بعد أن اضطروه لقتالهم ، فيسأله النصر عليهم لتنتصر كلمة الله . ومثل هذه الحرب لا يمكن أن تكون حربًا باغية ، ولا يمكن أن تنفلت فيها الأحقاد شفاء لما فى الصدور ، ولكنه جهاد خالص باسم الله وفى سبيل الله . . .

ويذهب الرسول ﷺ فى سياسة الحرب إلى أبعد من ذلك . إنه لم يكن أحب إليه من تأليف القلوب وحقن الدماء . ولهذا كان يقول لجيوشه :

« تألفوا الناس ، وتأنوا بهم ، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم « إلى الإسلام » فما على الأرض من أهل مدر ووبر – إلا أن تأتونى بهم مسلمين – أحب إلى من أن تأتونى بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم » .

وكان من وصاياه ﷺ قوله :

« لا تقاتلوهم حتى تدعوهم ، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدأوكم ، فإن بدأوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ، ثم أروهم ذلك القتيل وقولوا لهم : هل إلى خير من هذا سبيل ؟ فلأن يهدى الله على يديك رجلا واحدًا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت » .

وكذلك كان الخلفاء الراشدون فى حروبهم وفى وصاياهم للجيوش . كانوا يأخذون على أيدى القواد الذين يسرفون فى قتل الأعداء . ولقد عزل عمر ابن الخطاب القائد المنتصر خالد بن الوليد وكان يقول : إن فى سيف خالد لَرَهقًا ، أى إرهاقًا وشدة ، بكثرة ما يقتل من الأعداء . ويمتدح عمرو بن العاص فى فتح

مصر بقوله : تعجبني حرب ابن العاص . إنها حرب رفيقة سهلة .

على أن ذلك لا يعني أن سياسة الحرب في الإسلام تقوم على هذا الوجه وحده ، سياسة هينة لينة رفيقة بغير حدود ولا قيود ، ذلك لأن الحرب هي الحرب بشدتها وبأسها ، والعدو هو العدو بضراوته وبغيه وعدوانه ، وإنما كانت هذه الوصايا ضوابط لنوازع الحرب حتى لا تكون حرباً باغية . أما الوجه الآخر لسياسة الحرب في الإسلام ، فهو الصدق عند اللقاء وأخذ العدو أخذاً شديداً .

يقول الله ، تبارك وتعالى :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ، وَاعلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)[1] .

(فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ، حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ، فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا)[2] .

والإسلام يستجيب للدعوة إلى السلام حقناً للدماء .

يقول الله – تبارك وتعالى – :

(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّل عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)[3] .

---

(١) الآية ١٢٣ سورة التوبة .

(٢) الآية ٤ سورة محمد .

(٣) الآية ٦١ سورة الأنفال .

وقد تكون الدعوة إلى السلم خدعة من العدو ، ومع ذلك فإن سياسة الإسلام فى الحرب تقضى بالاستجابة حتى فى هذه الحالة ، مع أخذ الحيطة والحذر والإيمان بنصر الله .

وفى ذلك تقول الآية التى بعدها :

(وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ ، هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبِالْمُؤْمِنِينَ)[1] .

---

(١) الآية ٦٢ سورة الأنفال .

٢٨

الجهاد فريضة دينية وواجب اجتماعى

والقتال فى الإسلام فريضة دينية وواجب اجتماعى فى وقت معًا ، لأنه يقوم على دفع الظلم ومحاربة الفساد وحماية الحرمات وإقرار الحقوق ، والتكافل فى تحقيق ذلك بين جميع القادرين من أبناء الأمة على أداء هذه الفريضة .

(وَمَالَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ والْوِلْدَانِ ، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخرجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ، وَاجْعَلْ لَّنَا مِنْ لَّدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيرًا) (١) .

---

(١) الآية ٧٥ بسورة النساء .

ويقول تبارك وتعالى :

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)[1] .

والإسلام لا يعرف فى القتال من يسمون فى هذا العصر بالمرتزقة . إن كل مقاتل يعد نفسه للجهاد فيخرج بسلاحه وزاده وراحلته ، وإن المقاتلين الموسرين ليمدون إخوانهم بالمال والسلاح والرواحل . هذا قبل أن تتكفل الدولة بتدبير موارد الحرب والإنفاق على كتائب الجهاد ، ومع ذلك ظل الباب مفتوحًا لإسهام القادرين بالتبرع بالمال لدعم هذه الموارد .

إن المقاتل ليَخرج للجهاد ولا هدف له إلا النصر أو الشهادة ، مؤمنًا بقوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[2] .

وكذلك كان ميزان الصدق فى الجهاد ، أن تكون الغاية من القتال هى ابتغاء وجه الله ، لا الفخر ولا الغنيمة .

---

(١) الآية ٥ سورة القصص .

(٢) الآية ١١١ سورة التوبة .

قال رجل للرسول ﷺ : يانبى الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟

قال ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله .

وجاء أعرابى إلى الرسول ﷺ فآمن به ثم قال : أهاجر معك ، ثم كانت غزوة غنم الرسول فيها بعض الغنيمة فقسمها على أصحابه وأعطى منها هذا الأعرابى نصيبه . ودهش الأعرابى وقال : ما هذا ؟ قال الرسول هذا : نصيبك .

فقال الأعرابى : ما على هذا اتبعتك ، ولكنى اتبعتك على أن أُرمى فى حلق بسهم فأموت فأدخل الجنة .

وصدق الأعرابى فيما قال ، فمازال يقاتل حتى أدرك منيته بالشهادة فى سبيل الله .

لم يكن الجهاد إذن مقصورًا على فريق يحترف الحرب والقتال ، ولكنها تعبئة عامة لكل قادر ، ولكل مسلم ومسلمة مكانه فى المعركة ، ولا يعفى من حمل السلاح إلا الشيوخ والنساء والأطفال وأولو الضرر من المرضى وذوى العاهات .

ومع ذلك فإن عقيدة الجهاد ملأت قلوب المؤمنين الذين فرض عليهم القتال ، كما ملأت قلوب الذين أعفاهم الإسلام من حمل أعبائه على السواء .

هذه أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية ، شهدت يوم أحد مع زوجها وابنيها ، كانت فى أول النهار تسقى الجرحى والمسلمون منتصرون ، فلما دارت الدائرة عليهم ألقت السقاء وحملت السيف تقاتل ، وحين انكشف الرسول ﷺ للعدو وهاجمه عمرو بن قميئة وقفت نسيبة تدافع عنه ، فتوجه إلى ابن قميئة ضربات بسيفها فتوقع درعين كانتا عليه ، وتتلقى منه ضربة بالسيف تصيبها على عاتقها بجرح عظيم ، وهى ثابتة فى مكانها لا تبرحه مع من ثبت إلى جانب رسول الله من الرجال !

وقاتلت نسيبة يوم اليمامة ، فقطعت يدها وهى تحاول قتل مسيلمة ، ولم تزل تقاتل حتى رأت مسيلمة مقتولا فسجدت شكرًا لله .

وهؤلاء صبية لم يبلغوا الحلم ينضمون إلى المقاتلين فى غزوة أحد ، وحين يستعرض الرسول ﷺ جنوده يخرج هؤلاء الصبية من بين الصفوف ، وإن منهم من يشب على قدميه ليبدو أكبر من سنه .

وكان من هؤلاء رافع بن خديج ، قيل للرسول ﷺ إنه يحسن الرمى فأجازه ، ومنهم سمرة بن جندب . . قيل : يارسول الله ، لقد أجزت رافعًا ، وإن سمرة يصرعه . . فأجاز سمرة كذلك وضمها للمقاتلين وكلاهما فى الخامسة عشرة من عمره .

وفى هذه الغزوة رد الرسول ﷺ أسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر ابن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، والبراء بن عازب ، وعمرو بن حزم ، وأسيد ابن ظهير ، ثم أجازهم يوم الخندق وهم أبناء خمس عشرة سنة .

وهذا عمرو بن الجموح ، وهو أعرج شديد العرج ، أراد الخروج مع أولاد الأربعة فى غزوة أحد ، فأبوا عليه ذلك لكبر سنه وعاهته ، وقالوا له : نحن نكفيك وقد رفع الله عنك الحرج . . فذهب إلى رسول الله ﷺ يشكو أولاده ، فقال له الرسول ﷺ : إن الله قد وضع عنك الجهاد . .

فقال عمرو : يارسول الله ، لا تحرمنى الجنة فإنى أريد أن أدخلها فأطأ فيها بعرجى .

فقال الرسول ﷺ لأبناء الرجل :

وما عليكم أن تتركوه فلعل الله أن يرزقه الشهادة ؟

وقاتل عمرو بن الجموح فى سبيل الله حتى استشهد .

وفى عمومية فرض الجهاد على المسلمين عند التعبئة العامة ، يقول الله ، تبارك وتعالى :

(انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً) .

أى شيوخًا وشبانًا ، أقوياء وضعفاء ، أغنياء وفقراء ، مشاغيل وغير مشاغيل ، فى المنشط والمكره ، فى الشدة والرخاء .

وفى إحدى الغزوات التى انتدب لها المسلمون على عهد عثمان بن عفان ، قرأ أبو طلحة الأنصارى وهو شيخ مسن هذه الآية ، ثم قال لأبنائه : لم يبق لأحد عذر ، أرى ربنا استنفرنا شيوخًا وشبانًا . وطلب منهم أن يجهزوه للحرب .

قالوا له : يرحمك الله ، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك .

فأبى أبو طلحة إلا الخروج مع المقاتلين ، وركب البحر غازيًا فى سبيل الله ، حتى استشهد .

وقد نعى الله – تبارك وتعالى – على المخلفين تقاعدهم عن الجهاد ، وأنزل فى غزوة « العسرة » آيات تدمغهم وتفضح ما اعتذروا به من أسباب فقال :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُم انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ، أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ، فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (١) .

---

(١) الآيتان ٣٨ و ٣٩ سورة التوبة .

(انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)[1] .

(وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ، وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ، وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)[2] .

وهؤلاء هم المنافقون الذين كره الله خروجهم فصرف قلوبهم عن ذلك حتى لا يكونوا وبالا على المجاهدين ، يبثون فى صفوفهم الفتنة بالشائعات والأراجيف وتهويل أمر العدو عليهم وإثارة البلبلة والخلاف فيما بينهم .

ويقول الله – تبارك وتعالى – فى شأن هؤلاء المتخلفين :

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ . قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ، هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)[3] .

---

(١) الآيتان ٤١ و ٤٢ سورة التوبة .

(٢) الآيتان ٤٦ و ٤٧ سورة التوبة .

(٣) الآيتان ٥٠ و ٥١ سورة التوبة .

نغمة قديمة جديدة، رددها المنافقون المتخلفون فى عهد الرسول ﷺ .
ومازالت أصداؤها تتردد حتى الآن بين بعض الضعفاء والمنافقين .

إن تطهير الصفوف من أمثال هؤلاء يكفل المنعة والقوة للمجاهدين ؛ وكشف نفاقهم والتصدى لما يرجفون به واجب على المواطنين لحماية جبهات القتال والجبهات الداخلية من عوامل التصدع والخذلان .

* * *

ومن المخلفين ثلاثة كان لهم شأن آخر .

هذا كعب بن مالك من المؤمنين الصادقين ، ما تخلف عن غزوة قط فى سبيل الله ، ولكنه فى هذه الغزوة — غزوة تبوك — كانت تراوده نفسه إيثاراً للراحة وتجنباً للمشقة ، فيَهُمُّ بالانضمام للجيش ثم يتردد فيقعد مع القاعدين .

وعاد الرسول ﷺ إلى المدينة ، وأقبل المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا . فقبل الرسول اعتذاهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله .

وجاء كعب بن مالك يتعثر فى خطواته فقال : يارسول الله ، والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك .

فقال الرسول ﷺ أما هذا فقد صدق .

ثم قال لكعب : قم حتى يقضى الله فيك .

وكذلك فعل الرسول ﷺ مع مرارة بن الربيع وهلال بن أمية الواقفى . وأمر بأن يتجنب الناس هؤلاء الثلاثة المخلفين حتى يقضى الله فى أمرهم . . . فعانوا من مقاطعة الناس قريبهم وبعيدهم ما عانوا .

قال كعب بن مالك : فلما مضت أربعون ليلة على هذه الحال ، إذا برسول يأتينى فيقول : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك .

فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟

قال : بل اعتزلها ولا تقربها .

فقلت لامرأتى : الحق بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر .

وكذلك فعل الرسول ﷺ مع مرارة وهلال .

حتى إذا انقضت خمسون ليلة جاء من يبشر الثلاثة بالفرج . . .

فقد تاب الله عليهم وأنزل فيهم قرآنه :

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِىِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ، وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)[1] .

* * *

---

(١) الآيتان ١١٧ و ١١٨ سورة التوبة .

٢٩

ويتخذ منكم شهداء

وفى غزوة أحد التى سقط فيها كثير من الشهداء ، وتعرض الرسول ﷺ لسهام العدو وسيوفهم نزلت آيات كثيرة تجمع من صور الجهاد والاستشهاد ما يتصل بمختلف المواقف :

* التحريض على الجهاد والصبر وعدم الاستسلام للهزيمة واليأس :

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ) .

* الإشارة إلى طبيعة الحرب ، وما ينال المجاهد – وعدوه مثله – من شدة وبأس وتعرض للقتل والجراح ، والتراوح بين الهزيمة والنصر ، وفى ذلك إظهار لإيمان المؤمنين وسبيل لبلوغ شهادة الشهداء :

(إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مثله ، وَتِلْكَ

الْأَيَّام نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ الله الَّذِينَ آمنوا وَيتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللّه لَا يحِبُّ الظَّالِمِينَ) .

* ذلك لأن فى الجهاد امتحانًا لقلوب المؤمنين ومبلغ ثباتهم ، وهلاكًا للطغاة الذينَ يكفرون بالله ويتعدون حدوده ، وتأكيد أن الجنة تحت ظلال السيوف ، لا يدخلها إلا المجاهدون الصابرون :

(وَلِيُمَحِّص الله الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) .

(أَمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا الجنة وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُم وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) .

* وعاتب الله – تعالى – المنهزمين الذين لم يثبتوا على شدة الجهاد وضراوة القتال ، وقد كانوا من قبل يتمنون ملاقاة العدو ويطلبون الشهادة فى سبيل الله ؛ فلما دارت الدائرة على المسلمين ، وأرجف المرجفون بأن محمدًا قد مات . . انقلبو على أعقابهم يلتمسون النجاة من الموت . وما كانت الشهادة انتقاصًا لعمر الإنسان المحدود ، ولا ابتدارًا لأجله قبل موعده المقدور :

(وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْن الْمَوتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْه فَقَدْ رَأَيْتُموه وأَنْتُمْ تَنْظُرونَ) .

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللّهُ الشَّاكِرِينَ) .

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً ، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ) .

* وأشاد بمواقف من صدقوا من الربانيين المجاهدين مع أنبيائهم فى مواطن القتال ومواقف البأس والشدة ، فكان جزاؤهم النصر على عدوهم أو الشهادة التى بلغوا بها أعلى المراتب فى الآخرة :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)[1] .

* * *

وما من إنسان يموت وهو يعلم مقامه بعد الموت إلا الشهيد . إن كل إنسان تتنازعه السيئات والحسنات ، فهو من أخراه على وجل وإشفاق لا يدرى هل تثقل أم تخف موازينه هنالك ، أما الشهيد فقد أخذ من الله عهدًا لن يخلفه ، ومن أوفى بعهده من الله . فهو يعرف مقامه من الجنة ، وإنه لفى حياة متصلة محفوفة بالكرامة والرزق الكريم .

---

(١) الآيات من ١٤٦ إلى ١٤٨ سورة آل عمران .

يقول الله تعالى :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[1] .

وقال ﷺ :

« ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شىء إلا الشهيد ، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة » .

ولقد تمكنت هذه العقيدة فى النفوس المؤمنة ، فكانوا يتسابقون إلى ميدان القتال يحملون أرواحهم على أكفهم ، ولا هم لهم إلا تحقيق النصر أو إدراك الشهادة . ومن الأمثلة التى يزخر بها تاريخ الصدر الأول فى الإسلام ، والتى ما زالت تلهم القلوب بروافد غزيرة من القوة والتضحية والفداء ، قصة عمير ابن الحمام الأنصارى فى غزوة بدر ، حين نادى الرسول ﷺ فى أصحابه يحرضهم على القتال : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض . . . فينطلق الأبطال يتسابقون فى خوض المعركة ، ويسارعون إلى أبواب الجنة يطرقونها بسيوفهم وأرواحهم .

ويقول عمير بن الحمام الأنصارى :

– يارسول الله . . . جنة عرضها السموات والأرض ؟

قال : نعم .

---

(١) الآيتان ١٦٩ و١٧٠ سورة آل عمران .

وكان فى يد عمير تمرات يأكل منها ، فخاطب نفسه قائلا : إذن ، ليس بينى وبين الجنة إلا هذه التمرات ، ولئن حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة . . .

ورمى عمير التمرات من يده ، ثم اندفع يقاتل ويضرب فى العدو حتى استشهد . وانطبعت على شفتى الشهيد بسمة راضية مطمئنة وانعكست فى ناظريه أنوار الجنة .

وكان ممن قاتل فى غزوة بدر حتى استشهد ، حارثة بن سراقة ، فجاءت أمه إلى الرسول ﷺ فقالت له :

يارسول الله ، ألا تحدثنى عن حارثة . . فإن كان فى الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء .

فقال لها الرسول ﷺ :

« يا أم حارثة ، إنها جنان فى الجنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى .

فانفرجت أسارير الأم المؤمنة الصابرة ، وحمدت الله على ما بلغه ابنها من الكرامة .

والشهادة لا تقتصر على الموت فى ميادين القتال ، ولكنها متاحة لكل مسلم حيثما كان مكانه وإمكانه حين يتعرض للعدوان على دينه ووطنه وأهله . فهو مطالب عند ذلك بألا يذل ويستسلم ، بل يتصدى للعدو بكل ما أوتى من قوة ، يقاتله بكل قوة وبكل سلاح ، ويقاومه حتى آخر رمق فى حياته ، فإن غلبه العدو على أمره وسقط صريعاً فى المعركة فقد ظفر بالشهادة وكان مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء .

« من قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » .

وهذا الحديث يوحى بأكثر من معنى فى هذا المقام . . إنه يدعو كل مسلم لكى يعد نفسه لأن يكون أهلا للجهاد فى سبيل حماية دينه ووطنه وأمته ، مستعداً للدفاع عن مقدساته وحرماته . وهذا يتطلب منه أن يأخذ بأسباب القوة المادية والنفسية ، وأن يحتفظ على الدوام بلياقته البدنية ، بممارسة فنون الرياضة النافعة ، وفى مقدمتها أساليب الدفاع عن النفس ، والبعد عن كل ما يفسد الجسم والعقل ، والتمسك بالمبادئ والقيم التى تزوده بطاقات العزة والحمية وأسباب القوة والغلبة والانتصار . فإذا أخذ كل فرد فى الأمة نفسه بهذا الإعداد البدنى والنفسى ، كانت الأمة كلها مجندة فى معركة الحياة ، فإذا ما تعرض الفرد للظلم لم يذل ولم يخنع ، بل يدافع عن حقه حتى ينتصر أو يموت دونه ، وإذا ما تعرضت الأمة للعدوان كانت قواتها المسلحة قادرة على سحق العدو ومن ورائها جماهير الأمة تقف للعدو بالمرصاد ، وتنتظر دورها فى المعارك حينما دارت رحاها فى أى مكان ، وقد أعد كل فرد فيها نفسه للقاء العدو يقاتله وينازله بكل سلاح ، حتى يفتدى وطنه وأمته ، ويحمى أرضه وعرضه ، أو يظفر بالشهادة فى سبيل الله .

٣٠

جهاد فى كل مكان

والجهاد فى الإسلام لا يقتصر على القتال فى ميدان المعركة فحسب ، ولكنه يمتد فيشمل دائرة المجتمع كله ، ولهذا كانت سياسة الحرب فى الإسلام تقوم على إعداد الأمة كلها لحمل أعبائه ، باعتبار الحرب فريضة دينية ووظيفة اجتماعية لتأمين الدعوة وحماية المجتمع والدفاع عن حقوقه وحرماته ، يشترك فيها كل فرد حسبما تحدده إمكانياته وترسمه القيادة العامة فى تخطيطها للحرب .

إن منهم من يبقى لرعاية النساء والأطفال ، وله أجر المجاهد ونصيبه فى الغنيمة ، كما فعل الرسول ﷺ حين عهد بذلك إلى عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وحسان بن ثابت فى بعض الغزوات .

ويقول الرسول ﷺ « من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازيًا فى أهله بخير فقد غزا » .

إن كل من يشترك فى الإنتاج الحربى ، صناعة أو تجارة أو زراعة ، أو فى التعبئة للحرب بالإعداد والتدريب والتبرع بالدم والمال ، كل أولئك لهم فضل المشاركة فى الغزو وشرف الجهاد .

ويقول الرسول ﷺ : « إن الله ليجزى بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة . . صانعه ونابله ، والرامى به » .

وإن رعاية أسر المجاهدين والقيام بشئونهم لا يقل فى الميزان عن القتال فى الميدان .

ولقد كان عمر بن الخطاب يقول للمجاهدين وهم متوجهون للحرب : أنا أبو العيال حتى ترجعوا .

والمرابطة على الثغور ، وحراسة المرافق العامة ، من الجهاد فى سبيل الله .

قال الرسول ﷺ :

« رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه » .

« حرس ليلة فى سبيل الله ، أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها » .

« عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » .

والتحريض على القتال ، والتصدى للشائعات ، والجهاد بالكلمة من أسلحة الحرب . ولقد كان الرسول ﷺ يقول لحسان بن ثابت :

« والله إن شعرك لأشد عليهم من وقع الحسام فى غبش الظلام » .

وفى غزوة الأحزاب كان لموقف نعيم بن مسعود أثر قوى فى تصديع جبهة العدو وحملهم على الانسحاب ، بعد أن اجتمعت قريش وكثير من القبائل العربية واليهود على غزو المدينة والقضاء على محمد - ﷺ - ودعوته .

وترجع غزوة الأحزاب إلى مؤامرة يهودية بدأ بها فريق من زعماء بنى النضير

وبنى وائل ، حيث قدموا مكة وحرضوا قريشًا وغطفان على قتال الرسول ﷺ وقالوا : إننا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .

« ووجدت قريش وغيرهم فى دعوة اليهود وتحالفهم معهم على حرب محمد ﷺ فرصة تغتنم ، فنشطوا لذلك وأعدوا للأمر عدته ، ثم خرجوا فى عشرة آلاف مقاتل .

وعلم الرسول ﷺ وصحبه بالأمر ، وتداولوا ماذا هم فاعلون لملاقاة هذا العسكر الكثيف الذى يكاد يطوقهم من كل جانب .

وقال بعضهم : لا سبيل لملاقاة العدو ، ولا مناص من التحصن داخل المدينة . . . وأشار عليهم سلمان الفارسى بحفر الخندق . وحين أقبلت الأحزاب ورأت الخندق يحصن المدينة أسقط فى أيديهم ، وهنا فكر حيى بن أخطب زعيم بنى النضير فى حيلة يقضى بها على استحكامات الدفاع التى فاجأ بها المسلمون الأحزاب .

وتسلل حيى بن أخطب إلى المدينة حتى أتى يهود بنى قريظة ، وكان بينهم وبين الرسول ﷺ عهد وموادعة ، وقصد إلى زعيمهم كعب بن أسد يقول له : جئتك بعز الدهر ، وببحر طام ، جئتك بقريش وغطفان على قادتها وسادتها ، قد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه .

فتردد كعب وقال له : إنى قد عاهدت محمدًا فلست بناقض ما بينى وبينه ، ولم أر منه إلا وفاء وصدقًا .

فلم يزل به يحاوره ويزين له حتى أقنعه بنقض العهد والانضمام بقومه إلى الأحزاب ، وكانت طعنة غادرة فى ظهور المسلمين ، وتمت حلقة المؤامرة التى زلزلت القلوب والأقدام .

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتِ

الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا)[١] .

وظلت الأحزاب تحاصر المسلمين بضعًا وعشرين ليلة ، والمسلمون يرابطون في مواقعهم ليس بينهم وبين المشركين إلا الرمى بالنبال والمبارزة بين الأقران . وحين اقتحم بعض فرسانهم الخندق تصدى لهم على بن أبى طالب فى جماعة من المسلمين ، فردوهم على أعقابهم ، بعد أن قتل على بن أبى طالب ، وهو يومئذ فتى قد جاوز العشرين بقليل ، عمرو بن عبد ود أحد أبطالهم الكبار .

ولكن المعركة لم تنته بعد ، فقد طالت أيام الحصار ، واستمرت المناوشات ، واشتد على الناس البلاء ، وراجت سوق المنافقين حتى قال بعضهم : كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط !

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)[٢] .

وهم الرسول ﷺ أن يعقد صلحًا مع غطفان ليكسر عن المسلمين شوكة عدوهم ، ويقضى على الحلف الذى جمع الأحزاب على حربه ، فأرسل يفاوض غطفان على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة إذا رجعوا عن قتاله ، وأعدوا فيما بينهم مشروع معاهدة للصلح على ذلك .

---

(١) الآيتان ١٠ و ١١ سورة الأحزاب .

(٢) الآية ١٢ سورة الأحزاب .

ولكن الرسول ﷺ قبل أن يبرم هذه المعاهدة استدعى زعيمى الأنصار سعد ابن معاذ وسعد بن عبادة يستشيرهما . . فقالا له :

— يارسول الله ، أمرًا تحبه فتصنعه ، أم أمرًا أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيئًا تصنعه لنا ؟

قال : بل شيء أصنعه لكم . . . والله ما أصنع ذلك إلا أنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، واشتدوا عليكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

فقال سعد بن معاذ :

يارسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرًى « ما يقدم للضيف » أو بيعًا . أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا . . . والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

فأقره الرسول ﷺ على ما قال .

إنه الصمود والمقاومة حتى النصر .

ونعود إلى نعيم بن مسعود ، فقد أسلم دون أن يعلم به قومه من غطفان وجاء إلى الرسول ﷺ فقال :

يارسول الله ، إنى قد أسلمت ، وإن قومى لا يعلمون بإسلامى ، فمرنى بما شئت .

قال : خَذِّلْ عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة .

فخرج نعيم بن مسعود وقد رسم خطته لتخذيل العدو ، وهو مما يعرف الآن بالحرب النفسية ، وبدأ ببنى قريظة ، وكان لهم نديمًا فى الجاهلية ، فقال : يابنى قريظة ، قد عرفتم ودى إياكم ، وخاصة ما بينى وبينكم .

قالوا : صدقت ، لست عندنا بمتهم .

قال : إن قريشًا وغطفان ليسوا مثلكم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره . وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، وإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ، ولا طاقة لكم به . . فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا حتى تقضوا عليه .

فقالوا له : لقد أشرت بالرأى .

ثم توجه نعيم إلى قريش ، وإلى غطفان . . . فقال لهم : إن اليهود ندموا على الغدر بمحمد ، فراسلوه فى الرجوع إليه ، فراسلهم بأنا لا نرضى حتى تبعثوا إلى قريش فتأخذوا منهم رجالا رهنًا فأقتلهم .

فلما أصبح أبو سفيان أرسل عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان إلى بنى قريظة يقول لهم :

إنا قد ضاق بنا المنزل ، ولم نجد مرعى ، فأعدوا للقتال حتى نناجز محمدًا ونفرغ مما بيننا وبينه .

فأجابوا : إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدًا حتى تعطونا رهنًا من رجالكم ، فإنا نخشى إن اشتد عليكم القتال أن تعودوا إلى بلادكم وتتركونا ، والرجل فى بلدنا ، ولا طاقة لنا بذلك منه .

وقالت قريش وغطفان : والله إن الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق .

وبعثوا إلى بنى قريظة يقولون : إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدًا من

رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا .

وقالت بنو قريظة بعضهم لبعض : إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق .

ووقع الخذلان فى صفوف الأحزاب ، فانحلت عقدتهم ، وتراخت قبضتهم عن المسلمين ولم يلبثوا أن هبت عليهم عاصفة اقتلعت خيامهم وكفأت قدورهم .

وقال أبو سفيان : يامعشر قريش ، والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف « الدواب والإبل » وأخلفتنا بنو قريظة ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل .

وفى غزوة الأحزاب هذه تتمثل عدة جوانب من سياسة الحرب فى الإسلام ، لأنها جمعت فى عداوة الرسول ﷺ أطرافًا كثيرة ، منهم قريش وقبائل أخرى من العرب وهم أعداء محاربون ، ومنهم اليهود وهم معاهدون ، ومنهم المنافقون من المسلمين . وكان للرسول مع كل من هؤلاء الذين اشتركوا فى حربه موقف وحساب .

تمثل مبدأ « الموادعة » ومصالحة يهود المدينة على أثر الهجرة ، حتى يأمن المسلمون شرهم ويعيش الجميع فى أمن وسلام ، وحتى تتهيأ للمسلمين فى دار هجرتهم أسباب الاستقرار والقوة ، وكانت تلك من سياسة الإسلام فى علاقاته بالعرب المشركين وبأهل الكتاب وغيرهم من البلاد المجاورة . تمثل ذلك فى معاهدة الحديبية مع قريش ، وفى موادعة يهود المدينة وبعض القبائل العربية ، وفى رسائل الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء ، وفى عهود الخلفاء وقوادهم إلى الشعوب التى امتدت إليها دعوة الإسلام .

وإذا كان بنو قريظة قد خانوا العهد ، وغدروا بمحمد ﷺ ، وذلك بانضمامهم إلى الأحزاب فى حربه ، بدلا من أن ينضموا إليه فى حرب الأحزاب ، برغم اعترافهم بأنهم لم يروا منه إلا وفاء وصدقًا .

إذا كان بنو قريظة قد فعلوا ذلك ، فإن عليهم وزر ما فعلوا ، وقد نالوا جزاء خيانتهم وغدرهم . فقد خرج إليهم الرسول ﷺ فور عودته من غزوة الأحزاب ، وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة حصاراً شديداً حتى أجهدهم ، فطلبوا أن يحكم فيهم حليفهم ومولاهم سعد بن معاذ . فقال سعد : فإنى أحكم أن يقتل الرجال وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء .

فقال الرسول ﷺ : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات .

ومن المبادئ التى تقررت فى غزوة الأحزاب وفى غيرها من الغزوات الأخذ بمشورة أهل الرأى والخبرة . وقد كان حفر الخندق خطة جديدة لا عهد للعرب بها من قبل ، وأشار عليهم بذلك سلمان الفارسى فكانت من أسباب النصر .

ومن هذه المبادئ والخطط عدم الخروج لملاقاة العدو والتحصن بالمدينة ، فذلك فى مواجهة الأحزاب المهاجمين يعطى المسلمين ميزة التفوق على عدوهم بأيسر جهد وأقل نفقة ، ويكلف العدو أعباء الاستنزاف والتعرض لعوامل الطبيعة التى تمثلت فى الرياح العاصفة والأمطار الشديدة ، كما هلكت الخيل والإبل لقلة المرعى وبعد مصادر التموين .

وإذا كان الإسلام فى مثل هذه الحالة لا يحض على المسارعة إلى لقاء العدو ، أو هو يقرر ذلك بصفة عامة ، كما جاء فى قول الرسول ﷺ : « لا تتمنوا لقاء العدو . . » . فإن بقية الحديث النبوى تحدد واجبات المسلمين إذا تحتم هذا اللقاء ، فيقول :

« . . . وإذا لقيتم فاثبتوا » .

وفى الثبات عند لقاء العدو وتحريم الفرار آيات كثيرة ، يقول الله تبارك وتعالى :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(١) .

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ . وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)(٢) .

لا انسحاب من وجه العدو فرارًا من لقائه ، ولكن تنفيذًا لخطة قتالية يعود بها الكر بعد الفر ، والاقتحام بعد الإحجام ، وتتحقق بها الغلبة والانتصار .

ومن سياسة الحرب التى تمثلت فى هذه الغزوة كذلك « تخذيل » العدو . وهى المهمة التى كلف القيام بها نعيم بن مسعود ، والتى أدت إلى بث الفرقة وإثارة سوء الظن بين الأحزاب ، حتى انحلت عقدتهم وتفرقت كلمتهم وتحطمت جبهتهم وانصرف كل منهم يرجو لنفسه النجاة .

* * *

ومن سياسة الحرب فى الإسلام ، الرجوع إلى الشعب فى شخص ممثليه قبل اتخاذ قرار خطير فى شأن الحرب أو السلام .

أما فى شأن الحرب فنعود قليلا إلى غزوة بدر ، حين استنفر الرسول ﷺ أصحابه من المهاجرين والأنصار لمصادرة قافلة لقريش كانت فى طريقها من الشام إلى مكة ، تحمل تجارة يقدر ثمنها بخمسين ألف دينار .

إن قريشًا قد صادرت أموال المهاجرين من مكة ، ومازالت تمعن فى تعذيب

---

(١) الآية ٤٥ سورة الأنفال .

(٢) الآيتان ١٥ و ١٦ سورة الأنفال .

المسلمين الذين لم يستطيعوا الهجرة . فكان لابد من معاملتهم بالمثل ، حتى يرتدعوا وتخف وطأتهم على المستضعفين من المسلمين .

وكان على القافلة أبو سفيان وأربعون رجلا ، فما إن علم قبل وصولهم إلى المدينة بخروج المسلمين للقائهم ، حتى بعث رجلا يستنفر أهل مكة لحماية تجارتهم ، فتداعى الناس من كل مكان حتى لم يبق فى مكة قادر على القتال إلا حمل سلاحه ، وانطلقوا يقودهم أبو جهل لملاقاة محمد وأصحابه . .

وتحول ميزان الموقف . . إن محمدًا ﷺ وأصحابه خرجوا يتعرضون لتجارة قريش وهم بضعة عشر وثلاثمائة ، وقد أمدت قريش أبا سفيان بألف مقاتل ، واستشار محمد ﷺ أصحابه .

فقال المقداد بن عمرو ، وهو من المهاجرين : يارسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك . . والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

ولكن الرسول ﷺ لا يريد رأى المهاجرين وحدهم ، إنه يريد رأى الأنصار . ذلك أن المعاهدة التى عقدت بينه وبينهم ليلة « العقبة » التزموا فيها بالدفاع عن الرسول ﷺ وحمايته وهو بينهم بالمدينة . إما أن يخرج إلى « بدر » أو غيرها لقتال قريش فذلك ما لم تتضمنه البيعة أو يؤخذ عليه العهد .

ولهذا حرص الرسول ﷺ على أن يسمع رأى الأنصار فى لقاء قريش . ولم يكتف بما أجاب به المقداد بن عمر ، فأعاد السؤال وهو يقول : أشيروا على أيها الناس .

فالتفت سعد بن معاذ زعيم الأنصار إلى الرسول ﷺ يقول : لكأنك تريدنا يارسول الله ؟

قال : أجل .

قال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لَصُبُرٌ فى الحرب صُدُقٌ عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك . فسر على بركة الله .

وبذلك حسم ما قاله المقداد بن عمرو وسعد بن معاذ ، الموقف فى وجه من أراد أن يتعلل بأنهم إنما خرجوا لمصادرة التجارة وعليها أربعون رجلا ، لا لقتال قريش وقد وجهت إليهم ألف مقاتل .

وكانت غزوة بدر الكبرى انتصاراً رائعًا فى أول جولة بين المسلمين والمشركين ، برغم عدم التكافؤ بينهما فى العدة والعدد .

ونعود إلى غزوة الخندق ، لنشهد صورة قريبة من الشورى والرجوع إلى ممثلى الشعب قبل توقيع اتفاقية سلام بين الرسول ﷺ وفريق من الأحزاب .

وذلك حين أجهد الحصار المسلمين ، واشتدت ضراوة العرب واليهود فى التآمر عليهم والغدر بهم ومحاولة القضاء عليهم ، فأراد الرسول ﷺ أن يرفع عن المسلمين هذا البلاء بمصالحة « غطفان » على أن يرجعوا عنه ولهم ثلث ثمار المدينة .

وقبلت غطفان المصالحة ، ولم يبق إلا توقيع المعاهدة .

وهنا رجع الرسول ﷺ إلى أصحاب الحق الأول ، فعرض الأمر على الأنصار فكان جوابهم ما قاله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة . ونزل الرسول ﷺ على رأى الأنصار .

(وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا)[1] .

---

(١) الآية ٢٥ سورة الأحزاب .

٣١

من أخلاقيات الحرب

والإسلام يقيد الحرب ورد العدوان بالعدل والتقوى .

يقول الله تبارك وتعالى :

(وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (١) .

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ، فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (٢) .

والتقوى هى التزام حدود الله فلا بغى ولا إسراف . ورعاية حرمة الدماء

---

(١) الآية ١٩٠ سورة البقرة .

(٢) الآية ١٩٤ سورة البقرة .

والأعراض والكرامة الإنسانية ، فلا اغتيال بغير مواجهة ، ولا تمثيل بجثة قتيل ، ولا إهدار لدم أسير . وعدم المعاملة بالمثل فى انتهاك الحرمات . . فإذا اعتدى العدو على الأعراض فلا يكون ذلك مبررًا لانتهاك أعراضه ، ولكنها الحرب الشريفة يخوضها المسلمون باسم الله ، ولا يضرهم بغى عدوهم فإنما بغيه على نفسه . والله - تبارك وتعالى - حين يقول :

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) .

إنما يذكر بحقيقة مؤكدة وهى أن النصر من عند الله ، وأن تحقيق هذا النصر لا يكون إلا على قاعدة :

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)[1] .

وذلك بالجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمته والتزام حدوده .

والإسلام يقرر الإنذار والمواجهة فى الحرب قبل بدء الهجوم ، ويحرم المباغتة والغدر وذلك حتى يعطى للعدو فرصة الاستعداد للقتال ، فذلك قوله تعالى :

(وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)[2] .

وهو ينكر غزو العدو قبل تخييره إما بعقد معاهدة لمنع عدوانه ، أو باعتناق الإسلام إن أرادوا ذلك . لأن هدفه من القتال ليس مجرد الغزو والتسلط ، ولكن منع العدوان وتأمين الحدود وحماية الدعوة .

ولقد خالف قتيبة بن مسلم ذلك فى إحدى الغزوات التى امتدت حتى أوشكت

(١) الآية ٧ سورة محمد .

(٢) الآية ٥٨ سورة الأنفال .

أن تبلغ الصين ، دخل « صفد » من إقليم سمرقند ، دون أن يخير أهلها – كما تقرر سياسة الإسلام فى الحرب – فشكوه إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فقضى بأن ينسحب جيش المسلمين من صفد إلى موقعه الذى كان خارجها ثم يخير أهلها بين الإسلام أو المعاهدة أو الحرب ، وانسحب الجيش المنتصر لم يكرهه أحد على ذلك إلا وفاؤه لهذه المبادئ الشريفة .

فماذا كان موقف أهل صفد ؟ إنهم لم يغتنموا الفرصة بمعاهدة العرب على عدم الاعتداء مع بقائهم على دينهم فحسب ، ولكنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك فدخلوا فى دين الله عن طواعية واختيار ، بعد أن رأوا من مبادئ هذا الدين فى الحرب ، ما لا يوجد عند كثيرين غيرهم حتى فى عهود السلام .

وقد حدد عمر بن الخطاب فى وصيته إلى جيش المسلمين بقيادة سعد ابن أبى وقاص الدستور الأخلاقى للمحاربين ، والعلاقة الوثيقة بين تقوى الله والنصر على الأعداء فقال :

« أما بعد ياسعد ، فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإنها أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا وديننا لم نغلبهم بقوتنا . اعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيله ، لا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا ، فرب قوم سلط عليهم من هم شر منهم ، كما سلط الله على بنى إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا . اسألوا الله العون على أنفسكم قبل أن تسألوه العون على أعدائكم » .

أما سياسة الحرب فى شأن الأسرى ، فإن الإسلام قرر لهم حقوقًا تمثل أسمى صور العدل والعفو عند المقدرة ، والتجرد من شهوة الثأر والانتقام ، ورعاية الأخوة والكرامة الإنسانية . . .

المنُّ على الأسير بإطلاق سراحه لوجه الله ، أو إطلاق سراحه مقابل فدية مالية أو مقابل أسير مسلم يطلقه العدو . . . طريقان لا ثالث لهما فى معاملة الأسرى من الأعداء ، يقول الله ، تبارك تعالى :

﴿ فَإِمَّا مَـنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ [1] .

فالإسلام لا يجيز قتل الأسير أو تعذيبه أو استرقاقه ، لكن يفرض حمايته ورعايته والإحسان إليه : يقول الرسول ﷺ « استوصوا بالأسارى خيرًا » .

ويقول : « لا يعترض أحدكم أسير أخيه ويقتله » .

ويقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّه مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجهِ اللهِ ، لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [2] .

وأسر صلاح الدين الأيوبى عددًا كبيرًا من الصليبيين ، فلما لم يجد عنده ما يكفيهم من الطعام أطلق سراحهم .

يقابل هذه الصورة عند الصليبيين أن « ريكارد » قتل صبرًا ثلاثة آلاف أسير عربى بعد أن أعطاهم الأمان .

وحين عاد الرسول ﷺ من غزوة بنى المصطلق ، كان من بين الأسرى جويرية

---

(١) الآية ٤ سورة محمد .

(٢) الآيتان ٨ و ٩ سورة الإنسان .

بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه . فلما قدم أبوها ليفديها شهد من آيات النبوة ما أقنعه بإعلان إسلامه ، ثم خطب الرسول جويرية من أبيها فزوجها له . وما علم المسلمون بذلك حتى قالوا : إن أصهار رسول الله لا يُسْتَرقُّونَ .

وأطلق المسلمون من بأيديهم من أسرى بنى المصطلق وكانوا مائة من الرجال والنساء . قالت عائشة : فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها .

وفى غزوة حنين بالطائف كان عدد الأسرى من هوازن وثقيف ستة آلاف أسير . وأقبل شيخهم أبو صرد يقول :

« يارسول الله ، إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك .

يشير أبو صرد بذلك إلى رضاعة الرسول ﷺ فى قبيلة بنى سعد وهو طفل صغير .

فأعلن الرسول ﷺ بصوت عال :

أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم .

وما سمع المسلمون من المهاجرين والأنصار هذه الكلمة حتى قالوا جميعًا : وما كان لنا فهو لرسول الله .

وأطلقت هذه الكلمة سراح ستة آلاف أسير .

وأسلمت هوازن وثقيف !

وهناك صورة أخرى لسياسة الإسلام فى شأن الأسرى .

حين اجتاح التتار البلاد الإسلامية ، وقع فى أسرهم كثير من المسلمين وأهل الذمة من اليهود والنصارى . فلما دارت عليهم الدائرة فى معارك الشام ، ثم اعتنق ملوكهم الإسلام ، طلب شيخ الإسلام ابن تيمية من « قطلوشاه » أمير التتار أن يطلق سراح من تحت يده من الأسرى . فسمح له بالمسلمين وأبى أن يسمح له بأهل

الذمة . فكان رد ابن تيمية على أمير التتار أن قال :

لابد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ، ولا ندع أسيرًا من المسلمين ولا من أهل الذمة .

فأطلق أمير التتار جميع هؤلاء الأسرى على السواء .

جاء ذلك – والشيء بالشيء يذكر – فى الرسالة القبرصية ، التى بعث بها ابن تيمية إلى « سرجوان » أحد ملوك الصليبيين ، يطلب منه « افتكاك » من بيده من أسرى المسلمين ، ويذكره بموقف الدولة الإسلامية من أهل الذمة الذين أسرهم التتار .

وتبلغ سياسة الحرب فى الإسلام قمة السماحة فى موقف الرسول ﷺ عند فتح مكة ، وقد مكنه الله من رقاب قريش ، وعاد الذين أخرجوا من ديارهم أقوياء منتصرين .

إن أحد قواد الجيش الإسلامى يقول وهو يدخل مكة : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة .

وتبلغ هذه الكلمة الرسول ﷺ فيغضب ويقول : اليوم يوم المرحمة ، ويأمر بعزل هذا القائد .

ويدخل الرسول ﷺ مكة فى عشرة آلاف مقاتل ، وكان يركب على ناقته وهو مطأطئ الرأس تواضعًا لله وإشعارًا بحرمة بلده الحرام .

ثم يقوم على باب الكعبة فيقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

وينظر إلى قريش وقد تتابعت فى هذه اللحظات تلك الصور الدامية والمواقف الرهيبة التى كانت بينهم وبين محمد وأصحابه ، فيقول لهم : ما ترون أنى فاعل بكم ؟

قالوا : خيرًا ، أخ كريم وابن أخ كريم .

قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

إنه لم يحكم فى رقابهم السيف ، ولم يأخذهم أسرى ، ولم يصادر أموالهم ، ولم يشترط عليهم لذلك أن يعلنوا إسلامهم . ولكنه جعلهم أحرارًا طلقاء ، آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم .

صورة ليس لها مثيل فى تاريخ الحروب بين قائد منتصر وأعداء مغلوبين . فلم يلبث الناس أن دخلوا فى دين الله أفواجًا ، وكانوا فى الطليعة المؤمنة التى انطلقت لإعلاء كلمة الله ونشر دعوته فى مختلف أرجاء الأرض .

وبعد ، فهذه جوانب أساسية من سياسة الحرب فى الإسلام ، قاطعة الدلالة على البواعث والأهداف الإنسانية لشريعة الإسلام فى الحرب ، حماية لعقيدة المؤمنين من المسلمين وأهل الذمة على السواء . ودفعًا للظلم والعدوان ، وقضاء على جبابرة الأرض الذين يستذلون الرقاب ، وعلى الأنظمة الفاسدة التى تشقى بها البشرية ، إرساء لقواعد العدل والأمن والحرية . . وهى شريعة لم تشهد الدنيا له مثيلا فى تاريخ الحروب ولا فى تاريخ السلام .

٣٢

العلم والإيمان

حين رفعت الدولة شعار « العلم والإيمان » كان ذلك تأكيداً لانتمائها الحضارى ، وإحياءً لمقوماتها الأصيلة وتاريخها العريق ، منذ كان لها وجود على هذه الأرض ، وعلى امتداد حياة الأمة العربية والإسلامية عمقا واتساعا بين الأمم .

على هذا الخط الواضح كانت مسيرتها ، لم تنحرف عنه أو تتخلف عن حمل رسالته وتحقيق أهدافه ، إلا فى الفترات التى تتخلل حياة كل أمة حين يدب فيها الفساد من الداخل أو تقع تحت وطأة العدوان من الخارج ، ثم لا تلبث أن تستعيد قوتها الذاتية وتستمد من خصائصها العريقة ما تتحدى به عدوان العدو ، وتنفى عن نفسها عوامل الضعف والتخلف ، وتستأنف انطلاقها على الطريق .

والدولة وهى تمثل الصورة الكلية للسلطة فى كل أمة ، لابد أن تستمد وجودها من ضمير هذه الأمة . ومن هنا يكون مبلغ التوافق أو التمزق بين ضمير الأمة

ومقوماتها وبين الأنظمة التى تقوم عليها الدولة .

ولهذا كان العلم والإيمان هو النموذج المتكامل لقيام الدولة التى تتوافر لها كل مقومات القوة المادية والمعنوية ، والتى توفر للأمة حياة تنتفى فيها التناقضات إلى حد كبير ، ويتحقق التوازن المادى والمعنوى بين الدولة والأمة من جهة ، وبين أفراد الأمة بعضهم وبعض من جهة أخرى .

والحقيقة التى ينبغى التركيز عليها فى هذا المقام ، هى أنه لا توجد أنظمة « جاهزة » للتطبيق فى كل دولة ، بحيث تحدث أثرها الفورى وتؤتى ثمارها وكأنها إنتاج صناعى مصبوب فى قوالبه ، ولكنها مبادئ عامة تتفاعل مع الزمان والمكان ، ومع الفرد والمجتمع ، وتختلف فى قوة التأثير والتأثر بمقدار اختلافها – قربًا وبعدًا – مع قوانين الفطرة ونواميس الحياة .

وإذا استعرضنا تاريخ العلم والإيمان على هذه المنطقة العربية منذ أقدم العصور ، نجد أنه كان الصورة المتميزة والطابع الغلاب ، الذى يتمثل فى الرسالات السماوية الكبرى ، وفى الحضارات المتعاقبة والمتنوعة فى كل مكان . كما نجد أن أقوى وأزهى فترات هذا التاريخ هى التى يتكامل فيها العلم والإيمان ، لأن كلا منهما يقوم على الآخر ، ويرتبط به ارتباط وجود وغاية .

فإذا انتقلنا إلى مناطق أخرى فى العالم الفسيح على اختلاف الدول والشعوب ، وعلى تعاقب العصور والأجيال ، وتنوع الأنظمة العقائدية فى الحكم والسياسة والاجتماع ، نجد أن البعد عن شعار « العلم والإيمان » فكرًا وتطبيقًا ، إنما يرجع فى الغالب الأعم إلى سوء الفهم أو سوء التطبيق أو غلبة النزعات المستبدة عند الأفراد والجماعات .

- سوء الفهم لطبيعة العلم والإيمان ، كليهما أو هما معًا .
- أو سوء التطبيق فيما كان يعرف بالحكومات الدينية وسلطان الكنيسة وبعض

صور الخلافة الإسلامية ، وفى الانحراف بالعلم وتسخير منجزاته نحو الهدم والدمار بدلا من تنمية المجتمع وإسعاد أفراده .

● أو غلبة النزعات المستبدة من وراء ذلك كله ، أو نتيجة لذلك كله .

ويمكن القول إن المجتمعات التى فصلت بين العلم والإيمان ، أو بين الدين والدولة ، إنما جاء ذلك نتيجة « رد فعل » تختلف قوة أو ضعفاً للواقع الذى عاناه هذا المجتمع أو ذاك ، وللرواسب التى أرهقت وجوده وضميره ، أو هروباً من مواجهة هذا الواقع التى تتعقد مشكلاته عند بعض الشعوب .

هناك الدولة العلمانية ، والدولة الدينية أو الحكومة الدينية .

نماذج من الأنظمة الدولية التى نشأت فى بعض البيئات بأسبابها ومقوماتها ، فالدولة الدينية فى التاريخ السياسى اقترنت بسلطة الكنيسة وما تمثله من سيطرة « لاهوتية » على المؤمنين ، انحرف بها بعض « الآباء » إلى استغلال الإنسان والحجر على فكره وحريته ، واقتناء الإقطاعيات والعبيد ، ومحالفة الملوك والقياصرة الطغاة ضد الشعوب ، والمتاجرة بتذاكر الغفران . . حتى اشتعلت النفوس حقداً ومرارة ، وشاهت صورة « الدين » فى أعين الناس ، وكان شعار أشهر ثورتين فى أوربا دليلا على ذلك :

● شعار الثورة الشيوعية : الدين أفيون الشعوب .

● وشعار الثورة الفرنسية : اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس !

هذه هى الدولة الدينية فى القاموس السياسى والتاريخى الغربى ، وهو اصطلاح نبت فى بيئات معينة ، وله مدلول معين ، ومن هنا نشأت فكرة فصل الدين عن الدولة . وليس الأمر كذلك فى التاريخ العربى الإسلامى ، لأن نظام الحكم المستظل بمبادئ الدين على الأرض العربية لم يكن الحاكم فيه يدعى أنه يستمد

سلطة إلهية مطلقة ، ولكنها بيعة وطاعة يقيدها العدل وحمل المسئولية بالأمانة الواجبة وإلا فلا سمع ولا طاعة .

حين تولى أبو بكر الخلافة الأولى فى الإسلام قال فى أول خطبة له :

« أيها الناس : قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن صَدَفْتُ[1] فقوّمونى . . . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم »

وقيل مرة لأبى بكر : ياخليفة الله .

فاستنكر ذلك وقال : لست بخليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله .

وقال عمر عندما تولى الخلافة : من رأى منكم فىّ اعوجاجًا فليقومه !

فقال أعرابى : والله لو رأينا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا .

ودخل أبو مسلم الخولانى على معاوية فقال : السلام عليك أيها الأجير !

فقال مَن عنده : قل السلام عليك أيها الأمير .

فقال : السلام عليك أيها الأجير .

قالوا : قل الأمير !

فقال معاوية : دعوا أبا مسلم فإنه أعلم بما يقول .

قال أبو مسلم : إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها ، فإن فعلت وفاك سيدك أجرك ، وإلا عاقبك سيدها[2] .

---

(١) ملت عن الحق .

(٢) اختصرنا العبارة ونصها كالآتى : إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها ، فإن أنت هنأت جرباها (دهنتها بالقطران) وداويت مرضاها ، وحبست أولاها على أخراها وفاك سيدك أجرك . وإن أنت لم تهنأ جرباها ولم تداو مرضاها ولم تحبس أولاها على أخراها عاقبك سيدها » .

وفى معنى المسئولية قول أمير المؤمنين : لو عثرت بغلة بأقصى العراق لأشفق عمر وهو بالمدينة أن يُسأل : لماذا لم يعبِّد لها الطريق ؟ !

أما الدولة العلمانية فإنها وُجدت كذلك فى بعض المجتمعات إنقاذًا لها من الميراث الخانق لسلطان الكنيسة فى العصور الوسطى ، ومن التمزقات النفسية والفكرية التى كانت نتيجة غلبة الوثنية اليونانية والرومانية على الفكر المسيحى والتقاليد المسيحية فى أوربا ، مما باعد بينها وبين المسيحية فى صورتها الحقيقية ، كما وجد البعض الآخر من الدول الآسيوية فى علمانية الدولة مهربًا من تعدد الديانات والعقائد وتناقضاتها الحادة ، وخطر هذا التعدد على الأمن والوحدة الوطنية .

وليس فى التاريخ السياسى والدينى لهذه الأمة ، وخاصة فى الفترات التى كان فيها الدين والدولة سياج المجتمع وقوام الحياة فيه ، هذه الصورة المشوهة التى ألجأت تلك المجتمعات للتنكر للدين وفصل الدين عن الدولة ، فوقعت فيما هو شر وأنكى من تلك الحياة الكريهة المنكرة .

* * *

إن تاريخ مصر والعروبة منذ ميلاد البشرية على هذه الأرض كان هو تاريخ الدين . وعلى ثراها الطيب خطرت أقدام إبراهيم وموسى وعيسى وأمه العذراء البتول . ومن شعبها المؤمن كانت « هاجر » أم إسماعيل وكان أصهارُ محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين . وفى سبيل إعلاء كلمة الله والثبات على العقيدة كان الشهداء الأبرار من أتباع المسيح – عليه السلام – وفى صد أعداء الإنسانية خرجت الجيوش المصرية توقف الطوفان المدمر لجحافل المغول وتردهم على أعقابهم خاسرين . وفى سبيل حماية المقدسات الدينية والوطنية كان اندحار الاستعمار الصليبى ، وفى الثورة ضد الاستعمار البريطانى كانت الوحدة الوطنية على أروع

صورة ، وكانت الكنائس والمساجد معاقل يتبادل منابرها القسس والشيوخ ، وفى معركة رمضان المجيدة كان هتاف النصر : الله أكبر !

إن مصر والأمة العربية وقد انتصرت فى معركة تحقيق الذات ، قد تجاوزت المرحلة التى تفتنها فيها الشعارات المجلوبة ، أو تصرفها عن أصالتها وشريعتها وضرورة الاجتهاد فيها والتقنين لها بما استجد من مشكلات العصر ، سهولةُ استيراد الأفكار « الجاهزة » أو الانزلاق فى تطبيقات ليس لها فى التاريخ الإسلامى أو الواقع العربى جذور .

وإذا كان من أخطر ما تعانى الشعوب النامية هو أن يفرض عليها بصورة أو بأخرى أن تظل مجتمعات « استهلاكية » فى أنماط الحياة ، فإن هذا الخطر يكون أشد أثرًا حين يراد بهذه الشعوب أن تكون مجتمعات استهلاكية فى أنماط الفكر والعقيدة والحكم .

ونعود إلى دولة العلم والإيمان ، التى تقوم على شرعية الله فى إطار منهج متكامل تنتفى فى ظله أسباب التمزق الذى تعانيه مجتمعات تعزل الدين عن الدولة ، وتحصره فى أضيق الحدود ، وتسلبه مقوماته وفاعليته فى الحياة ، وتطلق الأهواء والشهوات بلا قيود ، وبذلك يتحول « العلم » وسائر نواحى النشاط الإنسانى إلى وحوش ضارية وأدوات مدمرة لكيان الإنسان وسلامة المجتمع . كما تنتفى فى ظل هذا المنهج أسباب ضياع الذات الذى تعانيه مجتمعات أخرى أنكرت الدين جملة وتفصيلا ، وبقدر ما وفرت للإنسان حاجته من الطعام حرمته من معانى وجوده النابعة من قوانين فطرته ، وإن حاولت أن تعوضه عن هذا الحرمان بألوان من الفنون والهوايات .

والدولة التى تقوم على العلم والإيمان ، تعرف للعلم قدره وأهميته ، فهى تأخذ بأسبابه وتعيش فى رحابه ، لا ترضى بالتخلف فى عصر يحاول أن يتجاوز

الأرض إلى آفاق الفضاء . وهى فى الوقت نفسه تبتغى وجه الله فيما تحاول من تطبيقات وما تحقق فى مجال العلوم من انتصارات ، فلا يكون هدفها السيطرة والاستغلال وتجارة الحروب ، ولكن تحقيق الخير وإشاعة الأمن وتوفير الرفاهية للإنسان ، ولنأخذ مثلا لذلك تفجير الذرة وغزو الفضاء .

● لو أن العلم والإيمان – وليس العلم وحده – هما أساس الحياة فى الدول « النووية » لانحصر تفجير الذرة واستخدامها فى مجالات علاج الأمراض واستصلاح الصحارى وتوفير الإنتاج ، والقضاء على مشكلات الجوع والمرض والتخلف بين بلايين البشر فى مختلف أنحاء الأرض ، ولم ينحصر استخدام هذا السلاح العلمى فى مجال الحروب وإرهاب الشعوب !

● وكذلك الأمر بالنسبة لغزو الفضاء . . . ما هى الدوافع التى تحركه والأهداف التى تشد إليها الأفكار والجهود ؟

وهل فرغت البشرية من استخدام المنجزات العلمية على وجه الأرض بما يحقق التقدم والرخاء ، فهى تلتمس لها مجالات أخرى لخدمة البشرية على أبواب السماء ؟

أم أنه سباق مجنون مجرد من « الإيمان » لم يكفه ما أحدثه على ظهر البسيطة من فتن ودمار وإهدار للأمن والأمان ، فهو يحاول أن ينتقل بميدانه إلى أجواز الفضاء ؟ !

إنه لا عاصم من هذه الأخطار التى تتهدد مستقبل البشرية على هذه الأرض ، إلا بانتصار القيم الدينية وسيطرة سلطان العلم والإيمان . وهذه مسئولية تكاد تلقى قيادها إلى الأمة العربية والإسلامية من جديد ، بعد أن أوشكت حضارة الغرب المادية على الأفول والانهيار .

٣٣

التطور والقيم الدينية

المجتمعات الإنسانية فى تطور دائم ، فهى لا تثبت على صورة واحدة ، ولا تجمُد على وضع معين ، ولكنها تتطور من حال إلى حال وتأخذ أشكالا مختلفة فى أساليب الحياة ووسائل المعيشة وطرائق التفكير.

فما هو موقف القيم الدينية من هذا التطور المستمر؟ .

وهل تستطيع هذه القيم أن تجارى الحياة فى تطورها ، وأن تلبى حاجات المجتمع المتغيرة من حال إلى حال ؟

وقبل أن نجيب عن هذا السؤال ، لابد من وقفة عند معنى التطور والثبات .

إن الوجود بما فيه من مختلف الكائنات ، تحكمه قوانين ثابتة لا تتغير ولا تتبدل . فهذه الأفلاك فى حركتها الدائبة ، وهذه الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات ، تقوم على نظام ثابت وقواعد مُحكمة ولكل منها قانونه الذى يخضع له

ويسير عليه .

بلايين الكواكب والنجوم التى تسبح فى الكون ، لكل منها مدارُها الذى لا تحيد عنه ، ومجالها المغناطيسى الذى لا تتجاوزه .

الإنسان الذى يبدأ تكوينه من خلية واحدة ، فإذا هذه الخلية تتحول إلى جسم متعدد العناصر من لحم وعظم وغضاريف ودماء ، متعدد الأجهزة من قلب ورئة ومعدة وعين وأذن وأعصاب ، متنوع المشاعر من شجاعة وخوف ، من كرم وبخل ، من حب وكراهية . . . إلى غير ذلك من الأضداد .

عالَم النحل بما فيه من تخصص عجيب فى العمل حيث تقوم كل نحلة بعمل معين ، وبما فيه من هندسة عجيبة فى بناء البيوت التى تتكون من عدة غرف مسدسة الأضلاع .

النبات الذى تُلْقَى بذوره فى أرض واحدة ، ويُسقى بماء واحد ، ثم يَخرج بعد ذلك مختلفَ الأنواع والألوان والرائحة والطعم .

هذه الكائنات جميعها تحكمها قوانين ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، ومنها الإنسان الذى تحكمه قوانين فى خَلْقه وتكوينه ، كما يرتبط بقوانين أخرى فى حياته الاجتماعية ، هى القيم الدينية ، التى لا تتغير ولا تتبدل لأنها تتصل بفطرة الإنسان ومعنى وجوده فى هذه الحياة .

ومن هنا كان معنى الثبات فى القوانين الكونية بالنسبة للكائنات ، وفى القيم الدينية بالنسبة للإنسان ،

وإذا كان ثبات القوانين الكونية لايعتبر جموداً يعوق حركة الكائنات فى الكون ، ولكنه ضرورة تنظم وجود هذه الكائنات ومسيرتها . فكذلك القيم الدينية فى حياة الفرد والمجتمع .

ولْننظر فى هذه القيم الدينية كيف أنها ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، مهما تطورت

حياة الإنسان واختلفت أساليب تفكيره ومعيشته .

إن الدين فى جوهره تنظيم للصلة بين الإنسان وربه خالق الكون والحياة ، وتنظيم للصلة بين الإنسان والمجتمع الذى يعيش فيه ، وذلك على أسس مترابطة لا ينفصل أحدهما عن الآخر . فهو حين يقوم على الإيمان بإله واحد متفرد بكمال الصفات ، إنما يجرد البشر فى الوقت نفسه من دعوى الألوهية والاستعلاء والسيطرة ، ويبطل مزاعم الذين يرون لأنفسهم حقوقًا مقدسة أو غير مقدسة على غيرهم من الناس ، ويضع الجميع على مستوى واحد فى الحقوق والجبات ، ثم لا يبقى لأحدهم فضل على الآخر إلا بما يقدم من عمل صالح يفيد الفرد أو المجتمع .

والدين حين يقرر مبدأ الجزاء وَيَعِد بالثواب والعقاب ، يقرر كذلك أن الله تبارك وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه ، وإنما هى حوافز وزواجر تتصل بالفطرة الإنسانية لتبلغ بالفرد والمجتمع الغاية من وجوده فى هذه الحياة .

والدين حين يقرر حتمية البعث والنشور ، إنما يقضى على فكرة « العدم » التى تُغرق الإنسان فى الشعور بالضياع والتفاهة ، وتقتل فيه معنى وجوده ، وتدفعه إلى اليأس والكآبة التى تحطم حياته ، أو الاستغراق المجنون فى الفردية وانتهاب الملذات ، وبذلك يعطى الدينُ للحياة قيمتَها ، ويرسم للإنسان رسالته فى هذه الحياة ، ويربطه بأهداف سامية تبعث فى نفسه معنى الخلود .

وعقيدة الإيمان بالله ، لا تستطيع الإنسانية أن تستغنى عنها فى أى عصر من العصور ، ولا فى أى مجتمع من المجتمعات ، لأن هذه العقيدة مرتبطة بالفطرة الإنسانية . وما يحدث لهذه العقيدة من قوة أو ضعف ، من استقامة أو انحراف ، إنما ينشأ نتيجة التوافق مع الفطرة الإنسانية أو التناقض معها فى الفكر والاتجاه .

فالفطرة الإنسانية تؤمن بوجود الله مبدع هذا الكون ، له الأسماء الحسنى ، وحده لا شريك له ، ولا معبود بحق سواه . فإذا انحرف الإنسان عن فطرته ، لا يستطيع حتى مع انحرافه أن يتخلى عن فكرة الإله المعبود ، ولكنه يخطئ في تصور هذا الإله والتعبد له . ولهذا الانحراف عن الفطرة الإنسانية وما يؤدى إليه من خطأ التصور والعبادة صورٌ كثيرة .

فمن الناس من يعبد الأصنام ، أو يقدس بعض الحيوان .

ومنهم من يعبد البشر من الملوك والزعماء ، أو من الأحبار والرهبان والصالحين .

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ(١) وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ)(٢) .

ومن هؤلاء الأحبار من تعتبر آراؤهم ونظرياتهم عند أتباعهم في بعض المجتمعات المعاصرة « دينا » له قداسة الدين المنزل من السماء .

ومن الناس من يعبد المال ، أو الشهوات والأهواء :

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ ، وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً)(٣) .

إن الإنسان حين ينحرف عن فطرته ، لا يستطيع أن يعيش في فراغ عقائدى ، فهو يشغل هذا الفراغ ويلبى نداء الفطرة بتصور الإله على صورة ما . سواء كان على خطأ في هذا التصور أو على صواب .

---

(١) علماءهم .

(٢) الآية ٣١ سورة التوبة .

(٣) الآية ٢٣ سورة الجاثية .

والقيم الدينية التى تنظم حياة الفرد والجماعة ، لها صفة الثبات والاستقرار والدوام ، لأنها تتصل بالفطرة الإنسانية التى لا تتغير ولا تتبدل :

(. . . فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)(١) .

إن رعاية حقوق الوالدين مثلا ، من القيم الدينية التى لا تتبدل ولا تتغير ، مهما تطورت حياة الإنسان واختلفت صور المجتمع :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاه وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا)(٢) .

وكذلك المساواة بين البشر دون النظر إلى الجنس أو اللون أو الغنى أو الفقر ، وتقويم كل امرئ بما يحسنه لا بما يدعيه من حسب ونسب وثروة وجاه ، وإقامة العدل ، والإحسانُ فى القول والعمل ، والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، هذه المبادئ العامة وغيرُها مما يشكل الصورة الكلية للدين ، لا يمكن أن تتغير موازينها أو تتبدل آثارها على اختلاف الزمان والمكان ، لأنها حقائق ثابتة وقيم خالدة ، كما لا يمكن أن تتغير أو تتبدل مسيرةُ الأفلاك وسنن الطبيعة فى الكون والحياة .

وإنما يجرى التغيير والتبديل داخل إطار هذه الصورة الكلية للقيم الدينية ،

---

(١) الآية ٣٠ سورة الروم .

(٢) الآيتان ٢٣ و ٢٤ سورة الإسراء .

وانطلاقًا منها لمواجهة تطور الحياة وتجدد صورها ، وقد كفلت هذه القيم الدينية تلبية سمحة لكل حاجات البشر ، واستجابة غير محدودة لكل تطلعات الفكر الإنسانى .

بل إن القيم الدينية فيما احتوته من مبادئ عامة ، حثت الإنسان على أن يستمتع بزينة الحياة وألا ينسى نصيبه من الدنيا ، وأن يجاهد فى عمارة الأرض التى استخلفه الله فيها ، ولم يقيد الدينُ ذلك إلا بالحدود التى تحمى الفرد والمجتمع من غوائل الإسراف والبغى . كما أن الدين فى مجال الفكر أطلق حوافز الإنسان للنظر فى ملكوت السموات والأرض ، وأثار أشواقه للكشف عن عالم الغيب فى الطبيعة وما وراء الطبيعة .

والإنسان قد يتطور أسلوب تفكيره ، بما يكتسب من تجارب العلم والمعرفة ، وللدين فى هذا قِيَمُهُ التى تحث على احترام العقل والتفكر فى ملكوت السموات والأرض ، وقد يتطور أسلوب حياته من البداوة إلى الحضارة ، وللدين فى هذا أيضًا تَوْجِيهُهُ إلى أن الله سخر للإنسان ما فى الأرض جميعًا .

فهل هذا التطور فى أساليب التفكير والحياة ، يستدعى بالضرورة تغييرًا وتبديلا فى القيم الدينية الثابتة ، أو الانصراف عنها إلى قيم أخرى تحل محلها وتشغل ما تخلفه من فراغ ؟ . .

إن التطور العلمى فى الوصول إلى القمر ، لم يقتض الخروج على قوانين الطبيعة الثابتة ، ولكن هذا التطور تم من خلال هذه القوانين التى جعلت لكل من الأرض والقمر منطقة جذب محددةً أبعادُها ، فإذا انطلق الإنسان بمركبته وتجاوز منطقة الجاذبية الأرضية ، يظل فى اتجاهه البعيد حتى يصل إلى منطقة الجاذبية الأخرى التى تقوده إلى الهبوط على القمر بسلام .

وكذلك التطور الذى يحققه الإنسان فى حياته ، لا يستدعى بالضرورة الخروج

على القيم الدينية ، أو إبدالها بقيم أخرى غيرها ، لأنه إنما يحقق هذا التطور من خلال ما تدعو إليه هذه القيم التى تستهدف تحقيق معنى وجود الإنسان فى هذه الحياة .

لماذا إذن نشأ الصراع فى بعض العصور ، وفى بعض المجتمعات ، بين الدين والعلم وبين الدين والحياة ؟ .

الحقيقة أن الصراع لم ينشأ على هذه الصورة . ولم يكن هناك صراع بين الدين والعلم ، ولا بين الدين والحياة ، لأنه لا تعارض بين الدين وبين العلم والحياة .

وإنما نشأ الصراع فى أوربا ، فى العصور الوسطى ، بين رؤساء الدين ، وبين الرواد من علماء الفلك والجغرافيا . حين اصطدمت الكشوف العلمية لهؤلاء الرواد ، بما لهؤلاء الرؤساء وغيرهم من تفسيرات للكون والحياة .

من هؤلاء الرواد « نيقولا كوبرنيكوس » الذى أعلن نظرية تعتبر اليوم من البديهيات ، ولكنها أثارت فى ذلك الوقت عاصفة من الإنكار الشديد ، وهى أن الشمس لا تدور حول الأرض ، ولكن الأرض ومعها الكواكب السيارة هى التى تدور حول الشمس .

ولولا أن « كوبرنيكوس » توفى بعد ساعات من صدور كتابه الذى ضمنه هذه الحقيقة العلمية ، لما نجا من العقاب الأليم الذى تعرض له من جاء بعده من العلماء[1] .

ومن هؤلاء « غاليليو » الذى تابع جهود سلفه وأثبت نظرية دوران الأرض ، فقاده ذلك إلى الوقوف أمام محكمة التفتيش فى روما ، ليحاكم بتهمة الكفر والإلحاد ، ويلقى من أجل ذلك السجن والتعذيب والإهانة والمصادرة ، ثم يموت

---

(١) كتاب تاريخ تنازع البقاء بين اللاهوت والعلم ، تأليف إسماعيل مظهر .

بعد ذلك شيخًا محطمًا ، محرومًا حتى من الصلاة على جثمانه ، منبوذًا بعيدًا عن أهله ومواطنيه .

ولقد ظل الصراع محتدمًا بين آباء الكنيسة والعلماء عدة قرون حول هذه الحقائق وغيرها من الكشوف العلمية ، وحول مصادرة حرية الفكر باسم الدين ، الأمر الذى أحدث فجوة كبيرة بين التصور الدينى للكون والحياة كما يريد أن يفرضه رؤساء الدين هناك ، وبين الحقائق العلمية التى غزت العقول وأصبحت من القضايا المسلم بها فى منطق العقل والواقع .

ومن هنا اهتزت الصورة الدينية فى الغرب ، وانحسر سلطان الدين عن مكانه الطبيعى فى النفوس ، وأصبح عند القلة المتدينة طقوسًا يؤدونها دقائق كل أسبوع .

هذا فى الغرب ، فماذا فى الشرق ؟

إن الأمر قريب من ذلك . فالدين فى جوهره برىء مما ألصق به فى تلك المجتمعات . لقد حكموا على الدين من خلال مواقف بعض المنتسبين إليه ، ومن خلال الصور التى انحرفت بالناس عن حقيقة الدين وقيمه وأهدافه ، حتى قال بعضهم إنه « أفيون » الشعوب . لأن الدين بتلك الصورة كان مسخرًا لدعم سلطان القياصرة ، وفرض العبودية والاستغلال على الجماهير ، وصرفهم عن الجهاد لاسترداد حقوقهم وكرامتهم وبناء مجتمعهم على أساس من الكفاية والعدل .

وللفيلسوف برتراند راسل رأى يؤكد عمق الشعور الدينى وارتباطه بالفطرة الإنسانية ، حتى عند أصحاب المذاهب المادية . ويرى أن هناك رباطًا خفيًا لا يمكن التخلص منه عند هؤلاء . يبدو ذلك واضحًا فى المقارنة بين الفكر اليهودى والفكر المسيحى والفكر الماركسى ، بل والفكر النازى .

وهو يضع لبيان ذلك قاموسًا فى تفسير بعض الألفاظ ذات الدلالة الدينية والماركسية فيقول :

* يهواه = المادية الديالكتيكية .
* المسيح = ماركس .
* الأخيار = سواد الشعب
* الكنيسة = الحزب الشيوعى .
* الظهور الثانى = الثورة .
* جهنم = عقاب الرأسمالية .
* النعيم الموعود (الجنة) = الدولة الشيوعية الواحدة[1] .

وهذه حجة للدين على منكريه ، ودليل على أصالة الفكر الدينى وامتداد أثره واستمرار قانونه فى الحياة ، وإن خالطه الانحراف عن الجادة وسوء الفهم للصورة الحقيقية للدين .

وتلك هى أزمة الدين فى المجتمعات التى انحسرت فيها القيم الدينية عن واقع الحياة . وهى أزمة لا تقوم على تعارض بين القيم الدينية والتطور ، ولكنها تقوم على مواريث فكرية واجتماعية استقرت هناك ، نتيجة الصراع المزعوم بين الدين والعلم ، أو بين الدين والحياة .

وليس الأمر كذلك بالنسبة للمجتمع العربى . والإسلامى ، ومواريثه من القيم الدينية الأصيلة

---

(١) كتاب تاريخ الفلسفة الغربية ، تأليف برتراند راسل . ترجمة الدكتور : زكى نجيب محمود . الجزء الثانى . صفحة (٩٦) .

المراجع

١ – القرآن الكريم .
٢ – كتب السنة .
٣ – سيرة النبي : لابن هشام .
٤ – نهج البلاغة : للإمام على بن أبي طالب .
٥ – الطبقات : لابن سعد .
٦ – سير أعلام النبلاء : شمس الدين الذهبي .
٧ – عمر بن عبد العزيز : لابن كثير .
٨ – إحياء علوم الدين : للإمام الغزالى .
٩ – الحسبة فى الإسلام : للإمام ابن تيمية .
١٠ – الرسالة القبرصية : للإمام ابن تيمية .
١١ – العلم يدعو للإيمان : ا . كريسى موريسون * ترجمة محمود صالح الفلكى .
١٢ – مع الله فى السماء : الدكتور أحمد زكى .
١٣ – أصوات لا تسمع : ب . قدر يافستف – ترجمة د . سيد رمضان هدارة .
١٤ – الإنسان ذلك المجهول : الكسيس كاريل – ترجمة شفيق أسعد فريد .
١٥ – تاريخ تنازع البقاء بين اللاهوت والعلم : إسماعيل مظهر .
١٦ – تاريخ الفلسفة الغربية : برتراند راسل – ترجمة د . زكى نجيب محمود .
١٧ – لبيك . . . (طبعة اقرأ) : محمد كامل حتة .
١٨ – شهر القرآن : محمد كامل حتة .

فهـرس

رقم الإيداع	١٩٨٣/٣٩٢٥
الترقيم الدولى ٩-٠٥٦٩-٠٢-٩٧٧	ISBN

١/٨٢/٢٠٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

يناقش كثيرا من القضايا التى تتصل بالفكر والعقيدة والسلوك ، ويجيب عن كثير من الأسئلة التى يثيرها صراع المبادئ وتحديات العصر ، ويصحح بعض المفاهيم التى اهتزت فى أذهان الكثيرين . ومن خلال ٣٢ فصلا يقدم المؤلف للقارئ :

* لماذا نؤمن بالغيب ؟ * موقف الدين من العلم . وحدود العلم فى مواجهة الدين . * الرقابة بين القانون والضمير . * حرية الفرد وقيود المجتمع . * العبادات وأثرها فى الفكر والسلوك . * حقيقة الزهد . والتوكل . والصدقة . * شريعة الحرب والسلام . * القيم الدينية بين التطور والثبات . . .

وعدة قضايا أخرى تدور حول أزمة الدين فى بعض المجتمعات الأجنبية ، ووضوح الرؤية بالنسبة لحقائق الكون والحياة فى الفكر العربى والإسلامى ، الذى يكاد يحمل وحده مسئولية تحويل مسار البشرية من متاهات العصر إلى سواء السبيل . . . .